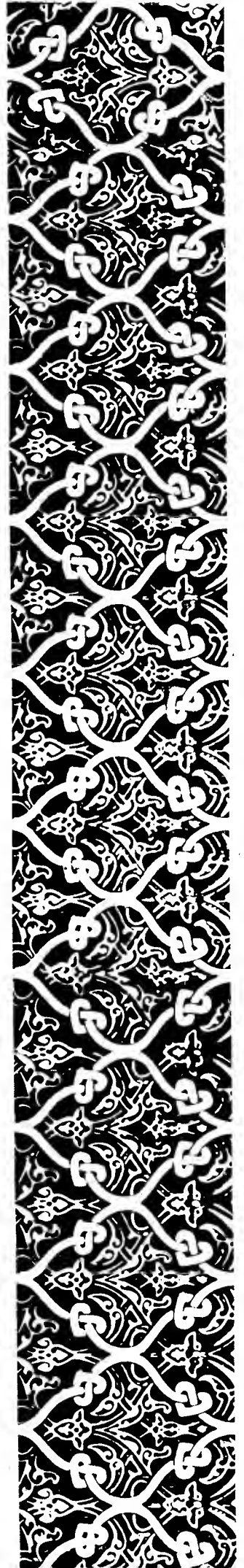




التربية العربية الإسلامية

المؤسسات والممارسات

الجزء الثاني



تاريخ التعليم في الأندلس من القرن الخامس إلى سقوط الأندلس

الدكتور محمد عبد الحميد عيسى*

أهمية فترة الدراسة :-

تعرضت بلاد الأندلس - منذ مطلع القرن الخامس للهجرة - لمجموعة من الأحداث الكبرى والتطورات التاريخية الحاسمة التي كان لها دورها في اختلاف تلك الحقبة الزمنية عما سبقها، لا في المجال السياسي وحسب، وإنما أيضاً في جميع مظاهر الحياة الاقتصادية والاجتماعية والعلمية... الخ.

ولقد شهد مطلع القرن الخامس للهجرة سقوط دولة الخلافة في الأندلس على ما كان لها من بهاء وعظمة، وتناثر الدولة الأندلسية الموحدة في ممالك صغيرة، عرفت بالطوائف، أضاعت هيبتها في قلوب أعدائها وتسببت في اندثار بلادهم أيضاً.

ومن أبرز أحداث القرن الخامس أيضاً، سقوط مدينة طليطلة الإسلامية على أيدي ملك قشتالة الأذفونش (الفونسو السادس) Alfonso VI وتحولها إلى عاصمة للمملكة النصرانية. وقد لعبت تلك المدينة دوراً أساسياً في نقل المعارف الإسلامية والعلوم العربية إلى أوروبا وإلى اللغة اللاتينية، مما كان له أثره القوي في تقدم الخطوات الأوروبية بثقة أكبر نحو عصر النهضة.

وشهد هذا القرن كذلك، ظهور دولة المرابطين في بلاد المغرب؛ ثم عبورهم إلى الأندلس، وتحمل عبء الدفاع عن البلاد، ومجاهدة النصارى حماية لها، وتحقيق نصر الزلاقة ٤٨٩ هـ / ١٠٨٦ م، الذي أعاد للمسلمين ثقتهم في أنفسهم ومكنهم من البقاء هناك لعدة قرون تالية.

وظهرت في القرن السادس للهجرة دولة الموحدين التي تمكنت، من حكم بلاد المغرب والأندلس ما ينيف على المائة والخمسين عاماً، وتركت بصماتها الثابتة على تاريخ هذه المنطقة وحضارتها.

* قسم التاريخ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - القصيم.

أما القرن السابع للهجرة، فقد كان شاهداً على سقوط معظم القواعد الأندلسية العامة في أيدي النصارى، فتهافت قرطبة، واشبيلية ومرسية، وبلنسية، وجيان، وبطليوس وغيرها.

وقامت في هذه الفترة في جنوبي الأندلس دويلة إسلامية عاصمتها غرناطة، أمكنها أن تقاوم الأمواج، وأن تدير شراعتها رغم شراسة أعدائها لتظل حية باقية إلى نهاية القرن التاسع الهجري ٨٩٧ هـ / ١٤٩٢ م، وقد عرفت بالمملكة النصرية.

وترتبط دراسة تاريخ التعليم في هذه الحقبة بهذه التغيرات السياسية جميعاً، وما أعقبها وترتب عليها من تغيرات اقتصادية واجتماعية، لما لذلك من دور مؤثر في الحياة التعليمية والنشاط التعليمي، فمن ذلك مثلاً الاهتمام ببناء المساجد، أو تعمير ما كان قد وهى منها وتجديده، والاهتمام بمن يجلس فيها من المعلمين ورواتبهم، والحرص على أن تتوافق المناهج التعليمية التي تقدم فيها، وسياسة الحكام، أو على الأقل لا تتعارض والاتجاه العقائدي العام الذي قامت عليه دولهم كالمرابطين والموحدين مثلاً.

وكذلك فإن بناء المدارس قد ظهر إلى الوجود من المنحى نفسه، فانتشر في بلاد المغرب أولاً ثم عبر إلى الأندلس متأخراً حيث حمله الموحدون ضمن أنظمتهم.

ومن ناحية أخرى فإن الأوضاع التي أحاطت بالدولة النصرية هي التي أثرت بلا شك على اشتداد الاهتمام بالعلوم النظرية دون العملية منها.

وكان أبرز تأثير لأحوال الأندلس الاقتصادية والاجتماعية والسياسية اعتباراً من القرن الخامس على الناحية التعليمية: هو تأثير تلك الأحوال على مجال الرحلات العلمية لأنه إذا كان قد دخل الأندلس في العصور السابقة عدد من المشاركة النابغين الذين تركوا أثراً واضحاً فيها، فإننا لا نجد الكثير من المشاركة يدخلون الأندلس في القرنين السادس والسابع الهجريين، وحتى هؤلاء الذين دخلوها لم يكن بينهم عالم مشهور باللغة والنحو^(١).

وإذا كانت الرحلات إلى المشرق هي إحدى الروافد الغنية التي لعبت دورها في إمداد قنديل العلم في الأندلس بالجديد من الزيت، فإن الظاهرة التي نلمحها في تلك الفترة هي كثرة الهجرة والاستيطان في البلاد المشرقية، حيث حاز الكثيرون منهم شهرة وجاهاً، منهم الحميدي (٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م)، والشاطبي (٥٩٠ هـ / ١١٩٣ م)، وابن دحية (٦٣٣

(١) رضا عبد الجليل الطيار، الدراسات اللغوية في الأندلس: ٤٣.

هـ / ١٢٣٥ م)، ومحيي الدين بن عربي (٦٣٨ هـ / ١٢٤٠ م)، والقرطبي (٦٧١ هـ / ١٢٧٢ م)، وابن مالك (٦٧٢ هـ / ١٢٧٣ م)، وابن سعيد (٦٧٣ هـ / ١٢٧٤ م)، والشاطبي اللغوي (٦٨٤ هـ / ١٢٨٥ م)، وأثير الدين ابو حيان (٧٤٥ هـ / ١٣٤٤ م) وغيرهم كثيرون.

الفصل الأول: تطور الحركة العلمية وارتباطها بالظروف الاجتماعية والسياسية.

مضى على الوجود الاسلامي في الأندلس أكثر من ثلاثة قرون كاملة، وهي فترة كافية لكي تنضج ثمار الحضارة الاسلامية في هذه البلاد وتؤتي أكلها، لا في مجال الحياة العلمية وحسب، بل في مناحي الحياة الانسانية جميعها.

ولقد لعبت الجهود خلال هذه القرون دورها العظيم في التمازج بين الحياة الفكرية الاسلامية على أرض الأندلس والحياة الفكرية الاسلامية في الشرق الاسلامي، ومن ثم في التقارب والالتقاء، وكانت الرحلة بين الاقليمين طرداً وعكساً أحد هذه الجهود التي أدت دورها ببراعة في هذا المجال، وإن اختلف المقصد وتباينت الغاية بين الأولى والثانية، فبينما كان مقصد الرحلة الأولى طلب العلم والمعرفة والنهل من مصادر الثقافة والفكر في الشرق الاسلامي، كان غرض الرحلات إلى الأندلس طلب الشهرة العلمية والمال ورفاهية العيش. وكان للرحلة في الاتجاهين أثرها المباشر في التقارب الفكري والثقافي بين العقليتين، بل يمكننا القول بأنها تماثلاً «في حياة الترف العقلي، وتغير الحياة الاجتماعية وأثرها في النفوس والعقول» (١).

وكان عصر الخلافة في الأندلس، والتشجيع الذي منحه كل من عبد الرحمن الناصر والحكم المستنصر والمنصور بن أبي عامر للعلم والعلماء أكبر رافد منح الأندلس في القرن الخامس الهجري عدداً ضخماً من المفكرين والأدباء والشعراء والأطباء ورجال العلم، وساعد على إثراء الحياة العلمية في الأندلس. وأعطى الفرصة للثقافة الأندلسية أن تنعم بنهضة عامة، كان من أبرز مظاهرها بروز الشخصية الأندلسية العلمية وقوتها واستقلالها إلى حد كبير بالابتكار والابداع في أكثر فروع المعرفة، وقد ساعدهم على ذلك ما تمتعوا به من الحرية الفكرية مع إقبالهم على العلوم الفلسفية والطبيعية، والاتصال بينابيع المعارف الاغريقية واللاتينية.

ولقد أعطى ذلك كله ثماره على عهد ملوك الطوائف فمضوا يرعون هذه الهمم

(١) مصطفى محمد أحمد السيوفي: ملامح التجديد في النثر الأندلسي خلال القرن الخامس: ٦١

ويشجعون هذه القرائح مما أشعل روح التنافس العلمي والثقافي بين أروقة هؤلاء الملوك، وليس أدل على ذلك من قول الشقندي في رسالته عن فضل الأندلس التي نقلها إلينا المقرئ: «وكان في تفرقهم اجتماع على النعم لفضلاء العباد، إذ نفقوا سوق العلم وتباروا في المثوبة على المنشور والمنظوم. فما كان أعظم مباهاتهم إلا قول: العالم الفلاني عند الملك الفلاني. والشاعر الفلاني مختص بالملك الفلاني» (١).

ولقد كان هؤلاء الملوك لفرط عنايتهم بالأدب يضمون إلى مجالسهم غير ما تحويه هذه الصفوة الراقية من أساطين الفكر والعلماء الذين أينعوا وأورقوا في ذلك العصر الزاهر، والذين كانوا قدوة جمهور الأدب والعلم في تلك الفترة، وكانت مجالسهم المعين الذي تستقي منه الحركات العلمية والأدبية والخلقية.

ويكفي للدلالة على ذلك أن نضرب مثلاً بمجاهد العامري حاكم دانية الذي يصفه ابن حيان بقوله: «كان مجاهد فتى أمراء دهره وأديب ملوك عصره، لمشاركته في علم اللسان، ونفوذه في علم القرآن... وكانت دولته أكثر الدول خاصة وأسراها صحابة لانتحاله العلم والفهم فأتمه جملة العلماء وأنسوا بمكانه، وخيموا في ظل سلطانه، واجتمع عنده من طبقات علماء أهل قرطبة وغيرها جملة وافرة، وحلية ظاهرة» (٢). وبما يقال عن دولة بني المظفر أمراء بطليوس من أنه كانت أيامهم في غرب الأندلس أعياداً ومواسم، وكانوا ملجأ لأهل الآداب (٣).

والحق أن النهضة العامة في الأندلس في القرن الخامس الهجري كانت الثمرة اليانعة للعلوم والآداب والفلسفة إلى جانب ثمرات أخرى لجنت آتت أكلها لا في ميدان الأندلس فقط، ولا في ميدان الحياة الإسلامية العقلية وحدها، بل في ميدان الحياة الانسانية كلها (٤).

وجاء المرابطون وسيطروا على شؤون الحكم في الأندلس، ومهما قيل عن التغير الذي طرأ على الحياة الثقافية والفكرية فيها، فإنه من الصعب على الانسان أن ينكر استمرار الحياة الفكرية، وإن عرف المرابطون بتشجيعهم جوانب معينة من هذه الدراسات، ولقد شهد

(١) المقرئ، نفح الطيب: ٣ / ١٩٠

(٢) ابن بسام، الذخيرة: ١ / ٢٣

(٣) المراكشي، المعجب: ١١٢

(٤) مصطفى السيوفي، ملامح التجديد: ٥٧

عصرهم اهتماماً نوعياً بالعلوم، حيث ازدهر بعضها وازمحل بعضها الآخر، ففي الوقت الذي اهتموا فيه اهتماماً كبيراً بالمذهب المالكي، فإنهم قد اضطهدوا علم الكلام، وآثروا فقهاء المذهب المالكي إلى درجة كبيرة، وخاصة الأمير يوسف بن تاشفين الذي اشتد إيثاره لأهل الفقه والدين، وكان لا يقطع أمراً في جميع أنحاء مملكته دون مشاورة الفقهاء... ولم يزل الفقهاء على ذلك، وأمور المسلمين راجعة إليهم، وأحكامهم صغیرها وكبیرها موقوفة عليهم، طول مدته، فعظم أمر الفقهاء، وانصرفت وجوه الناس إليهم، فكثرت لذلك أموالهم، واتسعت مكاسبهم (١).

ويزيدنا المراكشي تحديداً حين يقول: ولم يكن يقرب من أمير المسلمين ويحظى عنده إلا من علم علم الفروع، أعني فروع مذهب مالك، فنفتت في ذلك الوقت كتب المذهب، وعمل بمقتضاها ونبد ما سواها (٢).

ولعل قصر فترة المرابطين التاريخية وانشغالهم بالحروب الكثيرة في تثبيت دعائم دولتهم ثم في المحافظة عليها، قد صبغ هذه الدولة بالطابع العسكري، ولم يعطها الفرصة الكبيرة لازدهار علوم أخرى كثيرة. أو لعل أنشطتها العلمية حجبت عنا، فلم يصل إلينا الكثير من المعلومات عنها.

أما الموحدون فإننا نتمتع ببيانات وافرة ووثائق كثيرة عن اهتمامهم بالحياة العلمية، حيث أبدت هذه الدولة الموحدية اهتماماً كبيراً جداً بالتعليم، وذلك لقيام دولتهم على عقيدة دينية مميزة، مما حتم ضرورة الاهتمام بنوعية التعليم التي يمكن أن تساهم في إقناع الناس بهذه العقيدة (٣).

ولم يقتصر اهتمام الموحدین بما يتلاءم مع عقیدتهم فحسب، بل كان فضلهم على المعارف عظیماً، فإنهم حافظوا على ما اختاروه منها إلى حد كبير وشجعوها كما شجعوا كثيراً من العلوم التي لم تكن رائجة أو كان محظوراً رواجها في العهد المرابطي، وقد بلغ تشجيعهم للمعارف التي كانت شائعة في عهدهم مبلغاً عظيماً، وكان تشجيعاً مادياً وأدبياً، تفتنوا فيه ما شاءت لهم همهم الكبيرة أن يتفتنوا. فأسسوا المدارس، وعمروا المعاهد وجلبوا كبار

(١) المراكشي: المعجب: ٢٥٣. والمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع في كتاب محمد عبد الحميد عيسى: تاريخ التعليم في الأندلس: ١٧٣ - ١٧٦

(٢) المصدر نفسه: ٢٥٤

(٣) محمد عبد الحميد عيسى، تاريخ التعليم في الأندلس: ١٧٦

العلماء واقترحوا تدوين الكتب، وعقدوا المناظرات، وجمعوا المجامع العلمية المتنوعة، وأسسوا خزائن الكتب. وسبقوا إلى التعليم الاجباري وابتكروا التعليم المجاني، ووضعوا مناهج التعليم، ولرغبتهم في نشر العلم علموا حتى باللسان البربري (١).

ولقد كان لتسامح بعض خلفاء الموحدين مع العلوم الفلسفية أثره في بروز بعض القيم الفكرية في هذا المجال من أمثال ابن طفيل وابن رشد مما دعا بعض المؤرخين إلى القول بأنه كان من رأي الموحدين - على العموم - أن لا يحجروا على الناس في حرية تفكيرهم، ولذلك فقد ازدهرت رؤوس المفكرين وارتفعت في كل زاوية، بل إن أفقهم كان لا يضيق عن سماع النقد، وهم مع هذا يحرصون كل الحرص على أن يجلوا رجال الفكر والعلم، يستقبلونهم في صدر ما يستقبلون، ويؤثرونهم على غيرهم في الولايات والتكريمات والمظاهر السامية (٢). وهو أيضاً العصر الذهبي لعلم الطب إذ نبغ فيه كثير من أطباء الأندلس (٣). ومن أشهرهم أسرة بني زهر وخاصة الحفيد أبو بكر بن زهر، وأبو الوليد بن رشد وأبو الحجاج يوسف بن موراطير (٤).

وحينما زار الرحالة المصري عبد الباسط مدينة غرناطة قبل سقوطها في أيدي النصارى بجوالي ٢٥ عاماً وصفها بأنها مجمع الفضلاء والعلماء والأعيان والشعراء، وأرباب الفنون والكمالات، ثم يستطرد كثيراً في الحديث عن علماء غرناطة، ومشايخها ورجال الأدب والفكر فيها مما يدل على مدى التقدم الثقافي الذي وصلت إليه هذه المملكة، وحافظت على وجوده، رغم نذر الفناء التي كانت تأخذ بخناقها وتطبق عليها بشدة (٥).

ولقد بدأ الازدهار في هذه المملكة الصغيرة على عهد ثاني أمرائها أبي عبد الله محمد الملقب بالفقيه ٦٣٣ - ٧٠١ هـ / ١٢٠٢ - ١٣٠٢ م الذي يصفه ابن الخطيب بقوله: «انه توفر على المزيد من الخلال الفاضلة بالإضافة إلى العلم وممارسة الشعر، وإيثاره مجالس الأدباء والفقهاء» (٦).

وواصل ملوك غرناطة عنايتهم بالعلم والتعليم واحتل يوسف الأول وابنه محمد

-
- (١) محمد المنوني، العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين: ١٥ - ١٦.
(٢) عبد الهادي التازي: مقدمة تحقيقه كتاب ابن صاحب الصلاة: «المن بالإمامة». ٦٢، ومحمد عبد الحميد عيسى، تاريخ التعليم في الأندلس: ١٧٨.
(٣) السيد عبد العزيز سالم، في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس: ٢٨٥.
(٤) ابن أبي أصيبعة، طبقات الأطباء: ٥١٧ - ٥٣٤.
(٥) محمد عبد الحميد عيسى، تاريخ التعليم في الأندلس: ١٨٢ - ١٨٣.
(٦) ابن الخطيب، الإحاطة: ٥٥٦/١.

الخامس مكانة بارزة في هذا المجال. حيث أجريا الجراية على العلماء والمعلمين. وأوليا إليهم وظائف كثيرة وأوكلا إليهم أعمالاً يتقاضون منها جراية. ثم لكي يقوموا في الوقت نفسه بالتدريس وتعليم الناس.

وعلى عهد السلطان يوسف الأول شهدت غرناطة حدثاً تاريخياً لعب دوراً أساسياً في الحياة التعليمية فيها، وهو تأسيس المدرسة النصرية (١).

ولقد كان لسقوط المدن الأندلسية الكبرى، قرطبة وبلنسية، واشبيلية ومرسية، وهجرة كثير من علمائها إلى غرناطة أثره الكبير في ارتفاع المستوى الثقافي لهذه المملكة إلى درجة تعيد إلى الأذهان الفترة التي كانت عليها مدينة قرطبة في عهد الحكم المستنصر بالله. ولعل ذلك الاستعراض السريع يبين لنا ما يقوله المقرئ (١٠٤١هـ / ١٦٣١م) واصفاً أهل الأندلس بأنهم:

«في غاية الاستحضار للمسائل العلمية على البديهة، قال ابن مسدي: أملى علينا ابن المناصف النحوي بداهة على قول سيوييه «هذا باب الكلم من العربية» عشرين كراساً، بسط القول فيه على مائة وثلاثين وجهاً.

هذا وأمثاله يكفيك في تبحر أهل الأندلس في العلم، وربما سئل العالم منهم عن المسألة التي يحتاج في جوابها إلى مطالعة ونظر، فلم يحتاج إلى ذلك ويذكر من فكره ما لا يحتاج معه إلى زيادة» (٢).

ويكرر في موقع آخر:

«وأما حال أهل الأندلس في فنون العلم فتحقيق الإنصاف في شأنهم في هذا الباب أنهم أحرص الناس على التمييز. فالجاهل الذي لم يوفقه الله للعلم يجتهد أن يتميز بصنعتة ويربأ بنفسه أن يرى فارغاً عالة على الناس ولأن هذا عندهم في نهاية القبح.

والعالم عندهم معظم من الخاصة والعامة يشار إليه ويحال عليه وينبه إلى قدره وذكره عند الناس، ويكرم في جوار أو ابتياح حاجة وما أشبه ذلك» (٣).

لقد كان الأساس لهذا التفوق الحضاري والفكري هو نظام التعليم الذي اهتم به

(١) محمد عبد الحميد عيسى، تاريخ التعليم في الأندلس: ١٨٦.

(٢) المقرئ، نفع الطيب: ١٤٠/٤ - ١٤١.

(٣) المصدر نفسه: ٢٢٠/١.

الأولى، وبعد ذلك كانا يقومان بتعليمه بعض سور القرآن القصار، ومن المؤكد قيامهما أيضاً بتعليم أبنائهما كتابة بعض الكلمات أو الأعداد.

المكتب:

المؤسسة التعليمية الأولى بلا منازع في العالم الإسلامي التي لعبت دورها في تعليم أطفال المسلمين منذ عصر الرسول ﷺ. وما زالت تمارس دورها التعليمي حتى اليوم.

ولقد سبق أن بينت بما لا يدع مجالاً للشك، أن المكتب قد ظهر في الأندلس في فترة باكرة جداً من الوجود الإسلامي على أرض الأندلس (١).

وحين أطل القرن الخامس على الأندلس كان انتشار تلك المكاتب في تلك البلاد انتشاراً واسعاً، تدل عليه كثرة أسماء المعلمين والمؤدبين الذين تشير إليهم كتب التراجم الأندلسية باسم «معلمي الكتاب» أو المعلم، ومن ذلك:

حمد بن شهاب بن عيسى الأموي. من أهل قرطبة كان مؤدب كتاب (٢)، وحبيب بن إبراهيم المعلم، وكان معلم كتاب (٣)، وحمد بن قزلمان المؤدب: كان حافظاً للفقه على مذهب مالك، وكان يؤدب بالقرآن (٤)، وحمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن المعلم (٥)، وعبد الله بن محمد بن الطفيل المعلم (٦). وتكفي الإشارة إلى كثرة انتشار المكاتب في الأندلس عند مطالع القرن الخامس الهجري إلى أنه في موقعة قنتش سنة ٤١٠ هـ / ١٠٠٩ م (٧) أصيب من المؤدبين خاصة، ما ينيف على ستين، عريت سقائفهم في غداة واحدة، وتعطل صبيانهم لعدمهم (٨).

وازداد انتشار المكاتب والاهتمام بها على عهدي المرابطين والموحدين، وذلك

(١) محمد عبد الحميد عيسى، تاريخ التعليم في الأندلس: ٢١٨ وما بعدها.

(٢) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس: ٣١/١.

(٣) المصدر نفسه: ١٢٣/١.

(٤) المصدر نفسه: ٥٣/١ - ٥٤.

(٥) المصدر نفسه: ٥٩/١.

(٦) المصدر نفسه: ٢٢٢/١.

(٧) هي إحدى معارك الفتنة الأندلسية الكبرى بعد سقوط أسرة ابن عامر، وقد دارت رحاها بين أهل قرطبة بزعامة محمد بن هشام الملقب بالمهدي، وبين البربر بزعامة سليمان بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر. وكانت الدائرة على المهدي وأهل قرطبة ومن بينهم عدد كبير من العلماء والأئمة، ابن عذاري، البيان المغرب: ٨٧/٣ - ٩٠.

(٨) ابن بسام، الذخيرة: ٤٤/١.

لاهتمام الحكام بالقرآن الكريم وتعليمه للأطفال . فما يذكر عن الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين أنه « كان يسير في أعماله فيتفقد أحوال رعيته في كل سنة ، وكان محباً للفقهاء والعلماء والصلحاء مقرباً لهم ، صادراً عن رأيهم مكرماً لهم ، أجرى عليهم الأرزاق من بيت المال طوال حياته(١) » .

أما الموحدون فقد اهتموا بالمكاتب وما يجري بها من تعليم اهتماماً كبيراً يتمثل في محاولاتهم إدخال بعض الأفكار التربوية للإمام الغزالي وتطبيقها على نظام تعليم النشء في بلادهم ، ومن ذلك إدماجهم الرياضة في مناهج التعليم ، وفي مزج الأدب بالعطاء . كما كانوا يبالغون في اختيار المدرسين وامتحانهم واختبارهم ، ومن أمثلة ذلك ما كتب به عبد المؤمن بن علي إلى نوابه ، فإنه أكد عليهم في اختيار مدرسين أمناء ، وأن يكونوا من الذين يراقبون ويحافظون ، ولا يراءون في حقوق الله ، ولا يداهنون(٢) .

ويتجلى اهتمام المرابطين والموحدين بالتعليم الأولي في المكتب في ظهور آراء تربوية ناقدة للقاضي أبي بكر بن العربي (٤٦٨ - ٥٤٣ هـ) حيث وجه اهتمامه إلى المحتوى التعليمي بهذه المكاتب وقارنه بالمشرق ، وحاول أن يضع لهم منهجاً علمياً جديداً استحسنة ابن خلدون وإن رأى أنه لا يتفق مع تقاليد المجتمع وعاداته(٣) .

وفي الفترة التي شهدت تدهور دولة الموحدين ، نلّس اهتمام حكام الأندلس رغم مشاكلهم السياسية بالتعليم الأولي في تلك الوصية التي وجهها ابن هود المتغلب بشرق الأندلس حيث يقول : « ومروهم بأن يعلموا أولادهم كتاب الله فإن تعليمه للصغار يطفئ غضب الرب ، ونعم الشفيق يوم القيامة »(٤) .

وعلى الرغم مما كان يحيط بالدولة النصرانية من مشاكل إلا أن أهلها لم يهملوا شأن المكاتب ودورها في تعليم القرآن الكريم ، ونشر كمثال على ذلك إلى ما جاء في رسالة من إنشاء ابن الخطيب المتوفى ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م على لسان سلطانه الغني بالله حيث يقول عنه : « ويندب الناس إلى تعليم القرآن لصبيانهم ، فذلك أصل أديانهم »(٥) كما أن هناك

(١) ابن أبي زرع ، الأنيس المطرب في روض القرطاس : ٣٨ .

(٢) المنوي ، العلوم والآداب والفنون : ٣١ - ٣٨ .

(٣) عمار الطالبي ، آراء أبي بكر بن العربي الكلامية : ٢٣١/١ - ٢٣٩ ، محمد عبد الحميد عيسى ، تاريخ

التعليم في الأندلس : ٢٣٨ - ٢٤١ .

(٤) المقرئ : نفح الطيب : ٤١٣/٧ .

(٥) المصدر نفسه : ٣٨٠/٧ .

بعض الأدلة على بقاء المكتب حياً في الأندلس، بين المدجنين ومسلمي غرناطة حتى مارس الاضطهاد الديني النصراني دوره في القضاء على الإسلام والمسلمين بالأندلس (١).

أماكن وجود المكتب:

انتشرت المكاتب في الأندلس انتشاراً واسعاً بحيث لم تخل منه مدينة أو قرية أو ثغر أو حصن من الحصون أو نجع بدليل كثرة أسماء المعلمين والمؤدبين والمنقرئين التي حفلت بهم كتب الترجمة الأندلسية، وكذلك كثرة إنشاء المساجد التي اتخذت في الأندلس في غالب الأحيان مكاناً للكتاب رغم التوصيات الواضحة الواردة في كتب الفقهاء بعدم اتخاذ المسجد مكاناً لتعليم الأطفال، وقد جعل الحكم المستنصر بالله حين أمر بإنشاء سبعة وعشرين مكتباً لتعليم اليتامى القرآن الكريم ثلاثة منها في المسجد الجامع بمدينة قرطبة والباقي بكل ربض من أرباض المدينة، وفي ذلك يقول الشاعر ابن شخيص «بحر البسيط»:

وساحة المسجد الأعلى مكللة مكاتباً لليتامى من نواحيها
لو مكنت سور القرآن من كلم نادتك يا خير تاليتها وراعيها (٢)

ومن ذلك أيضاً إصرار ابن عبدون الإشبيلي على تذكير الناس بعدم اتخاذ المساجد مكاناً لتعليم الصبيان لأنها بيوت الله ومواضع الذكر، وأماكن العبادة مشهورة بالطهارة، ويجب أن لا يؤدب فيها الصبيان، فإنهم لا يتحفظون من النجاسات بأرجلهم ولا من ثيابهم».

وإذا رأى صعوبة تحقيق ذلك فإنه يواصل قوله: «فإن كان ولا بد ففي السقائف» (٣)، ولعل السبب في ذلك أن كثيراً من القائمين على شؤون المسجد كانوا يقومون أيضاً بتعليم الصبيان، فيروي ابن الأبار عند حديثه عن القاضي أبي عامر نذير بن وهب بن نذير الفهري (٥٥٨ - ٦٣٦ هـ) حيث يقول عن والده أنه كان لشتمرية معلم كتاب يؤدبهم، ويؤم في مسجدين أحدهما يصلي فيه نهراً والثاني ليلاً (٤)، ومثله أحمد بن خلف الأموي ٤٩٩ هـ / ١١٠٥ م. من أهل قرطبة، كان معلم كتاب وصاحب صلاة (٥).

(١) ريبيرا، خوليان، التربية الإسلامية في الأندلس: ١٦٤.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب: ٢٤١/٢.

(٣) ابن عبدون، رسالة في الحسبة، نشرها لفي بروفينسال: ٣١٤.

(٤) ابن الأبار، الحلة السيرة ١١٣/٢ - ١١٤.

(٥) كريم عجيل حسن، الحياة العلمية في مدينة بلنسية: ٢٣١.

ولم يقتصر الأمر على رحبة المسجد أو العرائش المحيطة به، بل إن المكتب قد اتخذ في أماكن كثيرة، وحارات ضيقة بعيدة مما جعل رجال الحسبة يوصون بعدم إنشاء تلك المكاتب إلا عند الأسواق العامة، وفي الشوارع الكبيرة، وفي ذلك يقول أبو عبد الله محمد ابن أبي محمد السقطي المالكي الأندلسي: «ومعلمو الصبيان يكونون بالشوارع العامة بالناس وأصحاب الحوانيت» (١).

ويجب أن نشير إلى حقيقة تاريخية هامة، وهي أن بلاد الأندلس بعد القرن الخامس الهجري كانت قد بدأت في التآكل والنقصان، وتمكن النصارى من الاستيلاء على كثير من أجزائها، ومن ثم كان انتشار المكاتب يتناقص تبعاً للظروف السياسية التي تمر بها دولة الاسلام في الأندلس، وللقارىء أن يتصور أن الحدود السياسية بين الدولة الإسلامية والدول النصرانية شمالها لم تكن ثابتة على الإطلاق، وأن الاستيلاء على المدن والقرى الإسلامية كان قد بدأ في التزايد منذ عصر المرابطين، وإذا كانت هذه الحركة قد هدأت نوعاً ما خلال النصف الثاني من القرن الخامس الهجري والقرن السادس بكامله نتيجة وجود المرابطين والموحدين، فإن القرن السابع الهجري قد شهد تآكلاً سريعاً لجسم الدولة الإسلامية في الأندلس بعد معركة العقاب عام ٦٠٩ هـ. فسقطت الخواضر والقرى ولم يبق من الأندلس إلا مملكة غرناطة الصغيرة، وتناقصت لذلك أعداد المؤسسات التعليمية في الأندلس عامة سواء المكاتب أو المساجد أو غيرها.

سن الذهاب إلى المكتب:

سار الناس في الأندلس على عاداتهم في العصور السابقة. وهي أن يبدأ الأولاد في الذهاب إلى المكتب في سن السادسة عادة أو قبل ذلك إن أمكن. ولدينا الكثير من الأمثلة على بدء مرحلة السماع وهي التالية لمرحلة المكتب في اخادية عشرة. فابن مريوال بن جراح ابن حاتم (توفي ٤٢٠ هـ / ١٠٢٩ م) يذكر أنه بدأ بالسماع وعمره لا يتجاوز إحدى عشرة سنة (٢)، ولكن العادة هي أن يبقى الأطفال في المكتب إلى سن الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة تقريباً لأن القابسي يوصي المعلمين أن يحترس بعضهم من بعض إذا كان فيهم من يخشى فساده ويناهز الاحتلام (٣).

(١) السقطي، آداب الحسبة: ٦٨.

(٢) ابن بشكوال، الضلة: ٢٨/١ - ٢٩.

(٣) أحمد فؤاد الأهواني، التربية الإسلامية: ١٣٠.

صبيان المكاتب :

يبدو من دراستنا للمصادر الأندلسية أن صبيان المكاتب كانوا من أبناء جميع الناس في الأندلس ، غنيهم وفقيرهم ، وباستثناء أبناء الخلفاء والأمراء - الذين كانوا يختصون بمعلمين يؤدبونهم في منازلهم ، فإنني لم أجد تبايناً في المستوى الاجتماعي للصبيان عند إرسالهم لتعلم القرآن والقراءة والكتابة في المكاتب .
المعلمون :

يرى المستشرق الإسباني خوليان ريبيرا ، معتمداً على بعض أقوال ابن خلدون أن التعليم بين الشعوب الإسلامية قد بدأ من أعلى ، بين أنبل الشخصيات ، ومضى هابطاً مع الزمن إلى أن انتهى به المطاف بين يدي أدنى طبقات المجتمع (١) ، ثم يواصل القول في موضع آخر بأن حرفة التعليم كان من الممكن أن تضم كل من شاء أن ينتسب إليها من شروط معينة (٢) .

والحقيقة التاريخية أن الأمر لم يكن كذلك في الأندلس على الأقل ، لأن ارتفاع المستوى الثقافي العام لأهل الأندلس إلى حد أن باعة التين في الأسواق كان يمكن لهم أن يقرأوا المصنفات الكبيرة إن لم يحفظوها ، هذا الارتقاء في المستوى الثقافي العام لم يكن يسمح أن يتولى التعليم - حتى ولو كان تعليم الصبيان - رجال ليسوا على درجة عالية من الثقافة والعلم ، وبإلقاء نظرة متأنية على كتب التراجم الأندلسية نجد أن لقب «معلم كتاب» و «معلم» كان من الألقاب التي يوصف بها أصحابها ثم يلحق بها ما كانوا يتمتعون به من علم ومن زهد ومن خلق ، وتكفي في هذا المجال الترجمة التي أوردها أبو الوليد بن الفرضي لميكايل بن هارون الباهلي ، وكان مؤدب كتاب ، فإنه يصفه بأنه كان مجاب الدعوة ، ومن أهل الجنة ، وحدثه أحدهم عنه ، فأثنى عليه ، ووصفه بالورع والفضل (٣) .

وقوله عن حسن بن شهاب بن عيسى الأموي : كان مؤدب كتاب وكان زاهداً فاضلاً (٤) . ويدل على ثقافة معلم الكتاب ما ورد أيضاً في بعض تراجمهم ، ومنها ما يقوله ابن الفرضي عن حمد بن قزلمان المؤدب كان حافظاً للفقهاء على مذهب مالك وأصحابه وكان يؤدب بالقرآن ، وكان رحمه الله من العباد المتبتلين (٥) .

(١) ريبيرا ، خوليان ، التربية الإسلامية في الأندلس : ٤٣ .

(٢) المصدر نفسه : ٤٨ .

(٣) ابن الفرضي ، تاريخ علماء الأندلس : ١٥٢/٢ .

(٤) المصدر نفسه : ٣١/١ .

(٥) المصدر نفسه : ٥٣/١ - ٥٤ .

وقوله عن إبراهيم بن عبد الرحمن الكلاعي المعلم، كان يجتمع إليه للتعفقه ويقرأ عليه (١)، وحسين بن فتح كان مؤدبا بالقرآن، وكان له بصر بالغريب والنحو والشعر (٢)، بل إن ابن الخطيب، وهو ذو الوزارتين، وصاحب السيف والقلم في مملكة غرناطة يضم كتابه الكتبية الكامنة (في أعيان المائة الثامنة)، ترجمة لأحمد بن عبد الملك العدوي قائلا: «وهو اليوم من معلمي الكتاب (٣)».

المنهج التعليمي:

تشابه التعليم في المرحلة الأولى في كل أنحاء العالم الاسلامي تقريبا مع اختلاف بسيط فرضته طبيعة السكان أو الاقليم، فقد اعتمد في هذه المرحلة على تعليم القرآن الكريم قراءة وكتابة، ولقد كان تعليم القرآن أهم الواجبات التي يجب القيام بها في المرحلة الأولى لأسباب هامة ورئيسية ذكرها العلامة ابن خلدون بقوله:-

«واعلم أن تعليم الولدان للقرآن شعار من شعائر الدين أخذ به أهل الملة ودرجوا عليه في جميع أمصارهم لما يسبق فيه إلى القلوب من رسوخ الايمان وعقائده، من آيات القرآن وبعض متون الأحاديث، وصار القرآن أصل التعليم الذي ينبنى عليه ما يحصل بعد من الملكات، وسبب ذلك أن التعليم في الصغر أشد رسوخا، وهو أصل لما بعده، لأن السابق الأول للقلوب كالأساس للمكان، على حسب الأساس وأساليبه يكون حال ما ينبنى عليه» (٤).

وهذا يتعلم الصبي نطق العربية بدقة، لأن القراءات القرآنية وإن اختلفت صورها، هي أفضل ما ينطق ويقرأ في كل العالم الاسلامي، ويمد الذاكرة بجمل عربية جيدة الفصاحة، تهيء التلميذ لدراسة النحو التي ستجيء فيما بعد، فيتخذ من القرآن المثل والشاهد (٥).

ويؤكد ابن خلدون وجود اختلاف بين الأمصار الاسلامية في اعتمادها على القرآن الكريم كأساس للتعليم الأولي فيقول: واختلفت طرقهم في تعليم القرآن للولدان باختلافهم باعتبار ما ينشأ عن ذلك التعليم من الملكات (٦).

(١) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس: ٥٩/١

(٢) المصدر نفسه: ١١٣/١

(٣) ابن الخطيب، الكتبية الكامنة: ٢٧٨

(٤) ابن خلدون، المقدمة: ٤٤٧

(٥) ريبيرا خوليان، التربية الاسلامية في الأندلس: ٤٤

(٦) ابن خلدون، المقدمة: ٤٤٧

وكان التعليم الابتدائي في الأندلس أكثر تنظيماً من كثير من أقطار العالم الإسلامي الأخرى. لأن المعلمين لم يقتصروا على تعليم القرآن فحسب، وإنما - كما ذكر ابن خلدون - كانوا يخلطون في تعليمهم للولدان رواية الشعر في الغالب والترسل وأخذهم بقوانين العربية وحفظها وتجويد الخط والكتابة (١).

واهتم الأندلسيون في تعليمهم الأولي بجانب آخر وهو العمل على تدريب الأولاد على الكتابة بخط حسن ما أمكن، وكانت عنايتهم بهذا الأمر لا تقل عن اهتمامهم بتعليم القرآن، وفي ذلك يقول ابن خلدون:

«ولا تختص عنايتهم في التعليم بالقرآن دون هذه، بل عنايتهم فيه بالخط أكثر من جميعها» (٢). وبذلك يحقق الأندلسيون من تعليمهم الأولي نتائج طيبة يتميز بها صبيانهم عند انتهائهم من هذه المرحلة، ويمكن أن نجملها فيما يلي:-

١ - يبرز الصبي وقد شدا بعض الشيء في العربية والشعر وتبصر بهما.

٢ - يبرز الصبي في الخط والكتابة ويتميز به.

٣ - حفظ القرآن الكريم الذي هو الأساس للكثير من الدراسات التالية.

واهتم الموحدون بالتعليم الأولي اهتماماً بيناً وتأثروا في ذلك بآراء الامام الغزالي (رحمه الله) وخاصة ما جاء في كتابه الاحياء، ومن ذلك ادماج الرياضة البدنية في بعض المؤسسات التي أنشأها للتعليم الأولي، وفي مزج الأدب بالعتاء، وغير ذلك (٣).

وشهد عصر الموحدين أيضاً ظهور الآراء التربوية للقاضي أبي بكر بن العربي الذي حاول أن يخرج القرآن عامة من الدراسة في المرحلة الأولية، ويضع منهاجاً مختلفاً يجب أن تقوم عليه الدراسة في الأندلس على الشكل التالي:

«ينبغي ان ينشأ الطفل على تعليم العربية ومقاطع الكلام، ويحفظ أشعار العرب وأمثالها، ثم ينتقل من ذلك إلى تعلم الحساب والتمرن عليه إلى أن يدرك قوانين الرياضيات والمعاني المجردة، لأن الحساب دستور علم الميراث وعمدة استخراج المجهول من المعلوم، ففيه منفعة للدين وتمرين للأفهام».

(١) ابن خلدون، المقدمة: ٤٤٨. حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس: ٥٠٠.

(٢) ابن خلدون، المقدمة: ٤٤٨.

(٣) المنوني، العلوم والآداب والفنون: ٣١ - ٣٨.

وإذا أخذ الطفل حظه من هذه الوسائل اللغوية والحسابية ودرس خلال ذلك شيئاً من معضل القرآن، واشتد ساعده في هذه العلوم التي تعتبر مقدمة لدراسة القرآن، انتقل الى دراسة القرآن نفسه، وذلك لأن اللغة والشعر، ومعرفة الكتابة بمثابة وسائل ميسرة لتعليم القرآن وفهمه (١).

ورغم إعجاب ابن خلدون بهذه الطريقة تربوياً، إلا أنه رأى أن العوائد لا تساعد عليها وهي «أملك بالأحوال ووجه ما اختصت به العوائد من تقدم دراسة القرآن إثارةً للتبرك والثواب. وخشية ما يعرض للولد في جنون الصبا من الآفات، والقواطع عن العلم فيفوته القرآن، لأنه ما دام في الحجر، انقاد للحكم، فإذا تجاوز البلوغ وانحل من ربة القهر، فربما عصفت به رياح الشبية، فألقته بساحل البطالة، فيغتنمون في زمان الحجر، وربقة الحكم، تحصيل القرآن، لئلا يذهب خلوا منه ولو حصل التيقن باستمراره في طلب العلم، وقبله التعليم لكان هذا المذهب الذي ذكره القاضي أولى مما أخذ به أهل المغرب والمشرق.. ولكن الله يحكم ما يشاء ولا معقب لحكمه» (٢).

الأجر على التعليم في المرحلة الأولى :-

كان التعليم الأولي في غالبية يتم على نفقة الأهالي، حيث يتفق الوالدان أو ولي الصبي مع المعلم على شروط دفع الأجر، وما سيتعلمه الصبي من موضوعات، ويمجر العقد لمدة عام، ابتداء من الشهر الذي يتم فيه، وكان المقابل أجراً أو هدايا. يقدم مالا في جانب منه، ويدفع مع كل شهر، وجانب آخر يقدم عينا. ويكون عادة «أروبتين» أو ثلاثاً من القمح، ونصف «أروبة» من الزيت.

وفي بعض الأحيان يتفق الطرفان على أجر محدد مقابل أن يتعهد المدرس مثلاً بتعليم الصبي هذه المادة أو تلك (٣).

وفي حالات أخرى كان الحكام يقومون بالانفاق على التعليم الأولي، ولقد ضرب الخليفة عبد المؤمن بن علي المثل الأكبر في ذلك، حين أدخل نظام التعليم الاجباري الذي سبق به عصره، فسن التعليم المجاني بأوسع معانيه، وكان يقوم زيادة على قيامه بنفقات

(١) عمار الطالبي، آراء أبي بكر بن العربي الكلامية: ٢٥٩/١ وما بعدها، رضا عبد الجليل الطيار، الدراسات اللغوية في الأندلس: ٣٠

(٢) ابن خلدون، المقدمة: ٤٤٩

(٣) ريبيرا خوليان، التربية الاسلامية في الأندلس: ٤٨

التعليم، بنفقة التلاميذ، ومؤونتهم وخيلهم وعددهم (١).

ويرى الأستاذ كريم عجيل أن الأجر الذي كان يتقاضاه المعلمون في هذه المرحلة كان ضئيلاً نوعاً ما متخذاً من ترجمة أبي بكر الصقلي المتوفى بعد (٤٦٠ هـ / ١٠٦٧ م).
دليلاً على أن المعلمين - وإن كان أجرهم غير محدد - إلا أنهم كانوا يرضون بما يعطيه آباء الصبيان من أجر، وما يقدمونه من هدايا عندما يجتاز أولادهم المرحلة الخاصة (٢).

وإذا ختم صبي القرآن فإن الأجر الذي يقدم للمعلم في هذه الحالة الحذقة، ويعرفها الزبيدي بأنها «ما يقدم للمؤدب حين يحذق صبيه تعليمه، ويقال لليوم الذي يختم فيه الصبي القرآن: هذا يوم حذاقة» (٣).

تعليم البنات في المكتب:

كان للبنات حظ من التعليم، وإن سكنت المصادر عن توضيح الكيفية التي تعلمن بها بشكل محدد، ولكن دراستنا لآراء الفقهاء الذين تكلموا في المجالات المتعلقة بالتعليم كابن سحنون والقابسي، التي تبين أن من صلاح المتعلمين ومن حسن النظر ألا يخلط الذكور والإناث، تسمح بالقول بتعليم البنات في المكتب، وإن كان اختلاط الجنسين في التعليم من المسائل الشائكة التي واجهها العالم قديماً وما زال.

ولقد جعلت هذه الخشية من فساد البنات الكثيرين يعلمونهن على حدة، قال القاضي عياض: «وكان من سيرة عيسى بن مسكين في غير مدة قضائه: أنه كان إذا أصبح قرأ حزه من القرآن ثم يجلس للطلبة إلى العصر، فإذا كان العصر دعا بنته وبنات أخيه يعلمهن القرآن والعلم» (٤).

ومن المؤكد أن الفتيات قد تلقين قسطاً وافراً من التعليم في المرحلة الأولى سواء عن طريق الآباء أو الأقارب أو في الكتاب وخاصة قبل البلوغ، ولذلك كان من الطبيعي أن تبرز إلى الوجود شاعرات نابغات، وعروضيات متمكنات، وأديبات يعترف بأدبهن

(١) المنوني، العلوم والآداب والفنون: ٣٣

(٢) كريم عجيل حسن، الحياة العلمية في مدينة بلنسية: ٢٢٩

(٣) الزبيدي، طبقات النحويين: ٢٧٨

(٤) السيد محمد أبو العزم، الأثر السياسي والحضاري للمالكية في شمال إفريقية حتى قيام دولة المرابطين: ٤٢٦ - ٤٢٧

المؤرخون ورجال الأدب، وعلماء ينقل الرجال عنهن الروايات الصحاح. (١)
أما دورها كمعلمة في هذه المرحلة فالنصوص الواردة نادرة وقليلة ومنها مثلاً ما ورد
عن ابنة حزم المعلم التي كانت تؤدب مع والدها وأخيها في دار واحدة.
وأخرى عرفت باسم غالبية بنت محمد - المعلمة الأندلسية على حد ما يسميها ابن
بشكوال (٢).

الفصل الثالث: المرحلة المتوسطة في الأندلس:

علينا ان نوضح منذ البداية أن التسمية، وإن طابقت الكثير من النظم السائدة
حاليا في الوطن العربي، إلا أنها لم تكن تحمل ذلك الاسم بين المسلمين في الأندلس لأنهم لم
يلجأوا إلى نظام تقسيم المراحل على غرار ما هو متبع حالياً، لكن الصبيان بعد الانتهاء من
مرحلة الكتاب كان عليهم الالتحاق بحلقات التعليم لبدء مرحلة جديدة في حياتهم
التعليمية ربما لا تتوقف إلا بانتهاء الأجل، اللهم إلا إذا قطع طريق العلم شاغل العمل أو
الانصراف إلى دروب الحياة المتعددة المناحي والتي تحول بين الناس وبين مواصلة تعليمهم.
أماكن التعليم في هذه المرحلة:

تنوعت أماكن الدراسة في هذه المرحلة تنوعاً كبيراً بحيث أصبح أي مكان يمكن أن
يجلس فيه المعلم أو الشيخ إلى طلابه، ولقد احتل المسجد المكانة الرئيسية في هذه الفترة
وإلى جواره ظهرت المدرسة ومنازل العلماء والمكتبات والرباطات وحوانيت الوراقين، حتى
المزارع وحوانيت العامة شاركت بدورها كمكان للتعليم، وبما أن غرض البحث ليس
التاريخ للمؤسسات التعليمية في الأندلس فإنني سأقتصر على الإشارة إلى أهمها باختصار.
المسجد:

عندما أطل القرن الخامس الهجري على بلاد الأندلس، كان انتشار المساجد فيها
عظيماً يصعب على الحصر، ويكفي أن نشير إلى أن مساجد العاصمة فقط قد وصلت في
تقديرات بعض المؤرخين إلى عدة آلاف (٣). بينما جعل منها أقل تقدير أربعمئة وواحداً
وتسعين مسجداً غير مساجد المقابر وهي كثيرة (٤).

(١) محمد المنتصر الريسوني، الشعر النسوي في الأندلس: ٦٩ وما بعدها

(٢) محمد عبد الحميد عيسى، تاريخ التعليم في الأندلس: ٢٦١ - ٢٦٢

(٣) السيد عبدالعزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة الإسلامية: ١٨٢/١ - ١٨٣.

(٤) أحمد فكري، قرطبة في العصر الإسلامي: ١٨٦ - ١٨٧.

ولم تخل قرية أو مدينة من المساجد التي شارك في بنائها الحكام والعلماء والأثرياء والتجار والعامة باعتبار بناء المساجد عملا من أعمال البر والتقرب إلى الله .

وعلى الرغم من شدة الظروف السياسية التي أحاطت بعصر ملوك الطوائف ، إلا أن بناء المساجد لم يتوقف ، ومثال ذلك ما قام به زهير العامري من إصلاح المسجد الجامع في المرية وتوسيعه (١) . وكذلك قيام السيدة أم المعتضد بن عباد ببناء مسجدها في إشبيلية الذي عين فيه الفقيه فرج بن جديدة للإقراء وأجرى عليه الراتب ونفقة من الأحباس (٢) .

ولقد أدت الظروف السياسية المحيطة بعصر الطوائف والمتمثلة في سقوط الكثير من المدن والقرى والحصون في أيدي النصارى أن كثرت الهجرة إلى المدن والقرى الإسلامية وزاد عمرائها مما أدى إلى زيادة بناء المساجد وانتشارها خلال هذه الحقبة .

وزاد الاهتمام بالمساجد على عصر المرابطين ، فعمروا مساجد المدن التي سبق للنصارى تدميرها مثل مساجد مدينة بلنسية ، وزاد في المساجد الجامعة الموجودة من قبل ، وأمر ببناء جامع سبتة وزاد فيه وتولى ذلك القاضي محمد بن عيسى (٣) .

أما الاستقرار السياسي الذي عاشته الأندلس تحت ظلال الموحدين وطول مدته التي نيفت على قرن من الزمان فقد سمح للمساجد بالانتشار ، فقد أمر الخليفة عبد المؤمن بن علي في عام ٥٥٠ هـ / ١١٥٥ م بإصلاح المساجد وبنائها في جميع بلاده (٤) . كما قام الخليفة أبو يعقوب يوسف ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م . ببناء جامع الموحدين في إشبيلية إلى جوار المسجد الجامع السابق المعروف باسم جامع ابن عديس (٥) . ولقد بلغ جامع الموحدين في إشبيلية حدا كبيرا من الاتساع والعظمة لا يضارعها إلا المسجد الجامع في مدينة قرطبة ، وكانت منارته التي رفعها الأمير أبو يوسف يعقوب ٥٩٣ هـ / ١١٦٩ م . وزينها بأربع تفاحات من الذهب بعد انتصاره في معركة الأرك لم يكن «في بلاد الاسلام أعظم بناء منها» (٦) وقد بقيت المنارة وبعض أجزاء المسجد حتى اليوم شاهدا على عظمة هذا المسجد الجامع (٧) .

(١) د. السيد عبدالعزيز سالم ، في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس : ٥٣٨ - ٥٣٩ .

(٢) المراكشي ، الذيل والتكملة : السفر الأول ٥٣٨/٢ - ٥٣٩ .

(٣) ابن عذاري ، البيان المغرب : ٥٨/٤ .

(٤) ابن أبي زرع ، الأنيس المطرب في روض القرطاس : ١٥٤ .

(٥) عبدالعزيز سالم ، في تاريخ وحضارة الاسلام في الأندلس : ١٧١ .

(٦) شاك فون : الفن العربي في أسبانيا وصقلية : ٧٦ .

(٧) المصدر نفسه : ١٧٢ .

وشارك الأهالي باستمرار في بناء المساجد مشاركة فعالة ، وتحفل كتب التراجم بأسماء من بنوا المساجد وجلسوا للتدريس فيها ومنهم - على سبيل المثال - أبو الحجاج يوسف بن محمد ابن عبدالله البلوي الذي عاش من ٥٢٧ - ٦٠٤ هـ / ١١٣٢ - ١٢٠٧ م ، وهو صاحب كتاب «ألف - باء» ، وقد عرف بالورع والتصوف والزهد في الدنيا ، ومن ذلك أنه «بنى ببلدة مالقة خمسة وعشرين مسجدا من صميم ماله ، وعمل فيها بيده» (١) .

وقام أمراء بني نصر بغرناطة بدورهم أيضا في بناء المساجد ، وخاصة المسجد الجامع في قلعة الحمراء ، الذي أصبح قاعدة علمية طيبة في مدينة غرناطة إلى جانب المسجد الجامع بغرناطة . ويصف لسان الدين بن الخطيب على لسان سلطانه بأنه كان يتفقد المساجد تفقدا يكسو عاريها ، ويتمم منها المآرب تتميمًا يرضي باريها .

المدارس :-

يرى كثير من المؤرخين أن المدارس قد ظهرت في بلاد المغرب في الوقت نفسه الذي ظهرت فيه في بلاد المشرق الاسلامي مع اختلاف بسيط من ناحية الشكل أو الهدف (٢) . ويؤكد الدكتور عبد الهادي التازي أنه «بعد ثلاث سنوات فقط من تأسيس المدرسة النظامية في بغداد عرفت مدينة فاس مدارس احتضنت الطلبة المغتربين الذين يردون بقصد الدراسة من سائر البلاد ، وحدد وجود مدرسة للمرابطين عام ٤٦٢ هـ / ١٠٩٦ م ، بناها الأمير يوسف ابن تاشفين بعد دخوله المدينة في حوالي التاريخ المذكور ، وأن طلاب هذه المدرسة قد قاوموا الموحدين مقاومة شديدة حتى قتلوا جميعا ، ولذا سميت بمدرسة الصابرين ، وأن أطلال هذه المدرسة ما زالت ماثلة إلى الآن» (٣) . ويؤكد ذلك أيضا د. حسن علي حسن بقوله : «وجه ولاية الأمر بالمغرب الأقصى اهتمامهم إلى التعليم ، ونشأ عن ذلك أن بنوا عدة مدارس في أجزاء متفرقة من البلاد ، وذلك لتخريج المتعلمين ، وكانت أولى المدارس التي أنشئت في عهد يوسف بن تاشفين تسمى مدرسة الصابرين» (٤) .

وكذلك اهتم الموحدون ببناء المدارس ، وأول من فعل ذلك هو الخليفة عبد المؤمن ابن علي حين بنى مدرسة ملحقة بقصره لتخريج الحفاظ ، وقام المنصور الموحدي ببناء عدة

(١) رشيد رضا إيطيار ، الدراسات اللغوية في الأندلس : ٥٧ .

(٢) سعيد إسماعيل علي ، معاهد التربية الإسلامية : ٣٧٩ .

(٣) عبد الهادي التازي ، مسجد القرويين : ١٢١/٢ ، محمد عبد الحميد عيسى ، تاريخ التعليم في الأندلس : ٢٧٧ .

(٤) حسن علي حسن ، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس : ٤٠٠ - ٤٠١ .

مدارس في أنحاء متفرقة من البلاد يقول عنها ابن أبي زرع: «وبنى - أي المنصور - المساجد والمدارس في بلاد إفريقية والمغرب والأندلس» (١).

ولعب بنو مرين دورا أساسيا في نشر المدارس والاهتمام بها في جميع أنحاء المغرب وكانوا أكثر نشاطا وأوفى همة في ذلك المجال (٢).

وشارك الأهالي الحكام في بناء المدارس، كما شاركوا في بناء المساجد، فنرى أن علي ابن محمد بن علي بن يحيى بن عبد الله الغافقي - كان رجلاً جماعة للكتب، منافسا فيها، مغالبا في أثمانها وربما أعمل الرحلة في التماسها، حتى اقتنى منها بالابتياح والانتساخ كل علق نفيس ثم انتقى منها جملة وافرة فحبسها في مدرسته التي أحدثها بقرب باب القصير، أحد أبواب بحر سبتة، وعين لها من خيار أملاكه، وجيد رباعه وقفا صالحا، سالكا في ذلك طريقة أهل الشرق، وقعد بها بعد اكمالها لترزية الحديث وإسماعه في رجب من عام خمس وثلاثين وستمائة (١٢٣٧ م) (٣).

وليس من المعقول أن تقف بلاد الأندلس بمعزل عن ذلك التطور الهام في مجال الحركة التعليمية رغم تأكيد ابن سعيد أن «ليس لأهل الأندلس مدارس تعينهم على طلب العلم، بل يقرأون جميع العلوم في المساجد بأجرة» (٤). حيث نجد بعض الاشارات الدالة على ظهور المدارس في الأندلس في فترة باكورة ومنها قول ابن فرحون المتوفى ٧٩٩ هـ / ١٣٩٧ م عند حديثه عن أبي علي الصدي المتوفى ٥١٤ هـ / ١١٢٠ م: «ثم عاد إلى الأندلس - وذلك عام ٤٩٠ هـ. ١٠٩٦ م - واستقر بمدرسة مرسية، ورحل إليه الناس» (٥)، كذلك رواية ابن أبي زرع عن السلطان الموحيدي أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ٥٨٠ - ٥٩٥ هـ / ١١٨٤ - ١١٩٩ م، فقد ذكر أنه: «حصن البلاد، وضبط الثغور وبني المساجد والمدارس في بلاد إفريقية والمغرب والأندلس» (٦). كما بدأت كلمة مدرسة تظهر ضمن أشعار الأندلسيين خلال القرن السابع وخاصة في رثاء المدن واستصراخ الهمم لإنقاذها، ومن ذلك قول ابن الأبار في

(١) حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس: ٤٠١. (نقلا عن ابن أبي زرع، الأنيس المطرب في روض القرطاس: ١٥٧).

(٢) سعيد اسماعيل علي، معاهد التربية الإسلامية: ٣٨١.

(٣) ابن الخطيب، الإحاطة: ١٨٨/٤.

(٤) المقرئ، نفح الطيب: ٢٢٠/١.

(٥) ابن فرحون، الديباج المذهب: ١٠٥.

(٦) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب في روض القرطاس: ٢١٧.

قصيدته المشهورة التي مطلعها:

أدرُكُ بخيلك خيل الله أندلسا إن الطريق إلى منجاتها درسا
يقول :

يا للمساجدِ عادتُ للعدا بيعا وللنداء غدا أثناءها جرسا
لهفي عليها إلى استرجاع فائتها مدارس للمثاني أصبحت درسا (١)

ويقول شاعر آخر لم يسمه المقري :-

بأبي مدارس كالطلول دوارس نسخت نواقيس الصليب نداءها
ومصانع كسف الضلال صباحها فيخاله الرائي إليه مساءها (٢)

ثم بدأت الأمور تتضح بالنسبة لمدارس الأندلس في القرن السابع حيث ظهرت المدارس المؤكدة ومنها :-

مدرسة مرسية : وهي مدرسة أقامها الأمير المسيحي الفونسو العاشر بعد استيلائه على المدينة عام ٦٤١ هـ / ١٢٤٣ م للعالم المسلم الشهير محمد بن أحمد الرقوتي المرسى ، لكي يعلم فيها أبناء الديانات الثلاث ثم أغلقت هذه المدرسة بانتقال الفقيه المسلم إلى غرناطة قبل نهاية القرن السابع (٣).

مدرسة غرناطة الأولى :-

أقام هذه المدرسة السلطان أبو عبد الله محمد بن محمد بن يوسف الملقب بالفقيه (٦٧١ - ٧٠١ هـ) . للفقيه محمد بن أحمد الرقوتي بعد أن استقدمه من مرسية وأسكنه في أعدل البقع بحضرته . وكان الطلبة يغشون منزله المعروف له ، فيتعلمون عليه الطب والتعاليم وغيرها ، إذ كان لا يجارى في ذلك ، وكان قوي المعارضة ، مضطلعا بالجدل ، وكان السلطان يجمع بينه وبين منتابي حضرته ممن يقدم منتحلا صناعة أو علما ، فيظهر عليهم لتمكنه ونبالته (٤) .

(١) المقري ، نفع الطيب : ٤٥٧/٤ .

(٢) المصدر نفسه : ٤٨٠/٤ .

(٣) ابن الخطيب ، الإحاطة : ٦٧/٣ - ٦٨ . المقري ، نفع الطيب : ١٣٠/٤ .

(٤) ابن الخطيب ، الإحاطة : ٦٨/٣ .

مدرسة مالقة :

من المحتمل أن تكون مالقة قد شهدت أكثر من مدرسة (١). ولكن الوثائق تشير إلى مدرسة صوفية أنشأها الفقيه محمد بن محمد بن عبدالرحمن الأنصاري المعروف بأبي عبدالله الساحلي ٦٧٨ - ٧٥٤ هـ / ١٢٧٩ - ١٣٥٣ م حيث بناها من مال أعطاه إياه بعض الأغنياء من وزراء الدول بالمغرب وأقامها في الجانب الغربي من المسجد الأعظم وأوقف عليها الرباع، وابتنى غيرها من المساجد (٢). وتولى الدكتور ماريا خيسوس ريبيرا، أنه ربما كانت هذه المدرسة هي أول مكان في الأندلس يمارس فيه التعليم بعيدا عن المسجد (٣). المدرسة النصرية بغرناطة :

أشهر مدارس الأندلس والمغرب عامة بناها السلطان الغرناطي أبو الحجاج يوسف الأول عام (٧٥٠ هـ / ١٣٤٩ م)، وأشرف على بنائها الحاجب رضوان النصرى المعظم، واجمع المؤرخون على مكانتها وعظمتها التي غطت على ما كان قبلها، وما زالت بعض أجزاء هذه المدرسة بنقوشها الإسلامية الرائعة باقية في مدينة غرناطة حتى يومنا هذا بجوار الكاتدرائية الكبرى (٤).

ومن الحقائق المعروفة أن العلم يمارس أينما يوجد العالم والمتعلم، ولذلك لم يقتصر الأمر على هاتين المؤسستين الرئيسيتين بل تعداهما إلى أسكن أخرى كثيرة كالدكاكين والأسواق والمراصد والمستشفيات والربط وسكك الرحلة بين المدن والفنادق (٥). تمويل المؤسسات التعليمية :-

انقسم تمويل المؤسسات التعليمية إلى قسمين أحدهما كان على كاهل الدولة ويتمثل في بناء المساجد الجامعة والانفاق عليها، فمن ذلك مثلا قيام عبد المؤمن بن علي، الخليفة الموحي عام (٥٥٠ هـ / ١١٥٥ م). بإصلاح المساجد وبنائها في جميع بلاده (٦).

(١) محمد عبد الحميد عيسى، تاريخ التعليم في الأندلس : ٣٨٧.

(٢) ابن الخطيب، الإحاطة : ١٩١/٣ - ١٩٣.

(٣) محمد عبد الحميد عيسى، تاريخ التعليم في الأندلس : ٣٨٨.

(٤) عن المدرسة والحاجب رضوان كتبت المصادر التالية :

ابن الخطيب، الإحاطة : ٥٠٦ - ٥١٢.

محمد عبد الحميد عيسى، تاريخ التعليم في الأندلس : ٣٩٠ وما بعدها.

محمد كمال شبانة، يوسف الأول : ٩٨.

(٥) كريم عجيل حسن، الحياة العلمية في مدينة بلنسية : ٤٠٣.

(٦) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب في روض القرطاس : ١٥٤.

وكان الانفاق على هذه المساجد العامة إما من بيت مال المسلمين مباشرة، أو من الأحباس التي خصصتها الدولة لهذه الناحية.

ولقد كثرت هذه الأحباس جداً اعتباراً من القرن الخامس حيث أصبحت تتطلب إدارة خاصة عرف صاحبها بصاحب الأحباس^(١)، وفي مملكة غرناطة زادت الأحباس على المساجد زيادة كبيرة أشار إليها ابن الخطيب على أساس أنها تمثل مصدراً هاماً من مصادر الدخل في مملكة غرناطة^(٢).

أما مساجد الأهالي فلقد تولى أصحابها الانفاق عليها، كما وجد الكثيرون ممن حبس داره أو أرضه على مسجد معين للانفاق عليه كما فعل البلوي^(٣).

أما المدارس فلقد تولتها الدولة، وخصصت لها الأوقاف المناسبة، فحينما بنى رضوان النصري مدرسة غرناطة لسلطان أبي الحجاج يوسف الأول «سبب إليها الفوائد، ووقف عليها الرباع المغلة، وجلب الماء الكثير إليها من النهر»^(٤).

أعمار الطلاب في هذه المرحلة :

يبدأ الطلاب الدراسة في هذه المرحلة فور الانتهاء من الدراسة في الكتاب، ومن الصعب تحديد سنة معينة كبداية للالتحاق بهذه المرحلة. فابن مريوال (٤٢٠ هـ/ ١٠٢٩ م)، بدأ بالسماع وعمره إحدى عشرة سنة^(٥)، وابن حزم بدأ هذه المرحلة بعد الخامسة عشرة تقريباً^(٦).
المنهج الدراسي :

لم يكن المنهج الدراسي في هذه المرحلة محدداً مثلما كان عليه الأمر في المرحلة الأولى، بل تميزت هذه المرحلة بإتاحة الفرصة أمام الدارسين لكي ينهلوا من عدد واسع من العلوم. وتبين لنا دراسة كتب التراجم والفهارس والبرامج أن المواد التعليمية التي كانت في متناول يد الدارسين قد تباينت واتسعت لتشمل كل مناحي الحياة التعليمية، وأن بعض المربين وضع منهاجاً أولياً يجب أن يسير عليه الطلاب بعد انتهائهم من الكتاب، فيرى أبو بكر بن

(١) ابن بشكوال، الصلة : ٥٧٩/٢

(٢) ابن الخطيب، الاحاطة : ١٣٢/١ - ١٣٣

(٣) رضا عبد الجليل الطيار، الدراسات اللغوية في الأندلس : ٥٧

(٤) ابن الخطيب، الاحاطة : ٥٠٧/١

(٥) ابن بشكوال، الصلة : ٣٨/١ - ٣٩

(٦) أحمد هيكل، الأدب الأندلسي : ٣٥٣

العربي أن الخطوة التالية لدراسة القرآن النظر في أصول الدين، ومعرفة أدلة العقائد، والاحتجاج لها ثم النظر في أصول الفقه ثم الجدل ثم يختم بدراسة الحديث وعلومه ومناهجه، ويحدثنا ابن خلدون شارحاً ذلك بقوله: ينظر في أصول الدين ثم أصول الفقه ثم الجدل، ثم الحديث وعلومه (١).

ولم تخل طريقة ابن العربي من دراسة العلوم إذ أنه أوصى بتعليم أصول الطب وأوصى أيضاً بتعليم تعبير الرؤيا، ومعرفة الأنساب. وينقل لنا عمار الطالبي آراء أبي بكر بن العربي على الوجه التالي: «والذي يجب على الولي في الصبي المسلم إذا عقل، أن يلقنه الايمان، ويعلمه الكتابة، والحساب، ويحفظه اشعار العرب العاربة، ويعلمه العوامل في الاعراب، وشيئا في التصريف، ثم يحفظه إذا استقل واشتد في العشر الثاني كتاب الله، وهو أمر وسط، متساو بين أهل المشرق، ثم يحفظ أصول سنن الرسول، وهو نحو من ألفي حديث في الأبواب نظمها البخاري ومسلم هي عماد الدين، ويأخذ هو بعد ذلك نفسه بعلوم القرآن ومعاني كلماته... ولا يفرط في علوم الفرائض فإنها أصل الدين، وأول ما يذهب من المسلمين، فبالسنة يفرضها وبالحساب يقسمها. ولا يخلي نفسه من الأنساب، ولا عن شيء من أصول الطب وليتخذ عبارة الرؤيا أصلاً» (٢).

لكن الظروف السياسية تتدخل لتؤدي دورها في تغيير المنهج الدراسي، وما يجب أن يقدم للطلاب خلال هذه المرحلة، ففي شرقي الأندلس كان اهتمام مجاهد العامري بالقراءات القرآنية، إذ كان هو من أئمتها، وبما كان له من العناية بباقي العلوم والقراءات خصوصاً، فظهر لعهد أبو عمرو الداني وبلغ الغاية فيها وعول الناس عليها وعدلوا عن غيرها، واعتمدوا من بينها كتاب «التيسير» له. ثم ظهر من بعد ذلك فيما يليه من العصور والأجيال أبو القاسم ابن فيرة من أهل شاطبة، فعمد إلى تهذيب ما دونه أبو عمر وتلخيصه، فنظم ذلك كله في قصيدة لغز فيها أسماء القراء بحروف (أ ب ج د) ترتيباً أحكمه ليتيسر عليه ما قصده من الاختصار، وليكون أسهل للحفظ لأجل نظمها، فاستوعب فيها الفن استيعاباً حسناً، وعني الناس بحفظها وتلقينها للولدان المتعلمين، وجرى العمل على ذلك في أمصار المغرب والأندلس (٣).

ويوافق المقري على ما ذهب إليه ابن خلدون من تدهور المستوى التعليمي ومن ثم

(١) ابن خلدون، المقدمة: ٤٤٩

(٢) عمار الطالبي، آراء أبي بكر بن العربي الكلامية: ٢٣٥/١

(٣) ابن خلدون، المقدمة: ٣٤٦ - ٣٤٧

ضعف المنهج التعليمي الذي يدرسه الطلاب فيقول:

«ولقد كان أهل المائة السادسة وصدر السابعة لا يسوغون الفتوى من تبصرة الشيخ أبي الحسن اللخمي لكونه لم يصحح على مؤلفه ولم يأخذ عنه، وأكثر ما يعتمد اليوم ما كان من هذا النمط. ثم انضاف إلى ذلك عدم الاعتبار بالناقلين فصار يؤخذ من كتب المسخوطين كما يؤخذ من كتب المرضيين» (١).

وأدخل المرباطون تغيرا كبيرا على المنهج التعليمي بإيثارهم علم الفروع أي فروع المذهب المالكي، فنفتت في ذلك الزمان كتب المذهب وعمل بمقتضاها ونبذ ما سواها وكثر ذلك حتى نسي النظر في كتاب الله وحديث رسول الله (ﷺ)، فلم يكن أحد من مشاهير أهل ذلك الزمان يعتني بهما كل الاعتناء (٢).

لذلك كان المذهب المالكي وكتبه هو محور الدراسة في المساجد في العهد المرباطي. بجانب العلوم الدينية الأخرى، ففي التفسير كان تفسير الطبري لاشتهاره هناك، وفي الحديث موطأ مالك بن أنس، وصحيح مسلم، وشرح أبي الفضل عياض اليحصبي، صاحب الشفاء، أما في الفقه والأصول فكانت كتب المذهب المالكي، وكتب أبي الوليد الباجي.

أما النحو واللغة فالمعول منه على كتاب سيبويه والايضاح للفراسي وفي اللغة فالمعتمد منها المخصص والمحكم لابن سيده وغير ذلك من الكتب (٣).

كما أنهم ناهضوا علم الكلام والدراسات الفلسفية والمنطقية أو أية دراسات قريبة منها، حتى رسخ في نفوسهم بغض علم الكلام وأهله، فكان يكتب عنه في كل وقت إلى البلاد بالتشديد في نبذ الخوض في شيء منه، وتوعد من وجد عنده شيء من كتبه، ولما دخلت كتب أبي حامد الغزالي - رحمه الله - المغرب أمر أمير المؤمنين بإحراقها، وتقدم بالوعيد الشديد من سفك الدم واستئصال المال، إلى من وجد عنده شيء منها، واشتد الأمر في ذلك (٤).

(١) المقرئ، نفع الطيب: ٢٧٦/٥

(٢) المراكشي، المعجب: ٢٥٤، ومحمد عبدالله عنان، عصر المرباطين والموحدين.

(٣) المراكشي، المعجب: ٢٥٥

(٤) المصدر نفسه: ٢٥٥.

وثار الموحدون على المرابطين وتمكنوا من إسقاط دولتهم والسيطرة بدلا منهم على بلاد المغرب والأندلس، وكان لذلك أثره الكبير في المناهج التعليمية، فلم تكن ثورة الموحدين ثورة دينية فحسب بل كانت مع ذلك ثورة فكرية دينية، ومن ثم أخذوا الطلاب والمعلمين بأرائهم التعليمية التي أصبحت تعلما إجبارياً على كل من انضوى تحت راية الموحدين من الرجال والنساء والأحرار والعبيد، حتى الذين لا يفهمون اللسان العربي، رخص لهم الدراسة باللسان البربري، بحيث يقرأ لهم عقيدة ابن تومرت البربرية - التوحيد - أما الذين يفهمون العربية، فكان لزاماً عليهم أن يقرأوا عقيدة ابن تومرت المرشدة، وأكد على الجميع في حفظ ذلك وتدبره، وملازمة قراءته وتعهده.

ويلحق بكتابي المهدي المقررين مجموع أحاديث الجهاد الذي أمر يوسف العلماء بتدوينه ليملي على الموحدين ليدرسوه، فكان يمليه على الناس بنفسه، وكان كل واحد من الموحدين والسادة يجيء بلوح يكتب فيه الاملاء.

وكذلك مجموع أحاديث الصلاة، وما يتعلق بها مما جمعه بأمر يعقوب طائفة من العلماء. وكان يمليه بنفسه على الناس ويأمرهم بحفظه ويجعل لمن حفظه الجعل السني من الكسا والأموال (١).

وترتب على موقف الموحدين إحداث تغيير شديد في الدراسات الدينية وخاصة في الفقه والأصول، فتعصبوا ضد المذهب المالكي وحاربوا علم الفروع، ويصف المراكشي ذلك التغير عند حديثه عن أبي يوسف يعقوب (٥٨٠ - ٥٩٥ هـ / ١١٨٤ - ١١٩٩ م): «وأمر بإحراق كتب المذهب بعد أن يخرجوا منها ما فيها من حديث رسول الله (ﷺ) والقرآن الكريم، ففعل ذلك - فأحرق منها - جملة في سائر البلاد كمدونة سحنون، وكتاب ابن يونس، ونوادر أبي زيد ومختصره، وكتاب التهذيب للبرادعي، وواضحة ابن حبيب وما جانس هذه الكتب ونحا نحوها، ولقد شهدت منها، وأنا يومئذ بمدينة فاس فيؤتى منها بالأحمال فتوضع، وتبطلق فيها النار، وتقدم إلى الناس في ترك الاشغال بعلم الرأي والخوض في شيء منه، وتوعد على ذلك بالعقوبة الشديدة» (٢).

وعلى العكس مما كان عليه الأمر على عهد المرابطين من محاربة علم الكلام ومناهضة الفلسفة نجد أن الموحدين يتيحون الفرصة في بعض الأحيان للدراسات الفلسفية، وظهر

(١) المنوني، العلوم والآداب والفنون: ٢٧ - ٢٨ نقلا عن المراكشي، المعجب: ٤٠١

(٢) المراكشي، المعجب: ٤٠٠

على عصرهم من كبار فلاسفة الاسلام ابن طفيل وابن رشد، وكان بعض الأمراء الموحدين من المتضلعين في هذه العلوم، وان كان ذلك لم يستمر طويلا فنكب ابن رشد، وكتب أمير المؤمنين أبو يوسف يعقوب «بالتقدم إلى الناس في ترك هذه العلوم جملة - أي الفلسفة - وبإحراق كتب الفلسفة كلها إلا ما كان من الطب والحساب وما يتوصل به من علم النجوم إلى معرفة الليل والنهار، وأخذ سمت القبله، فانتشرت هذه الكتب في سائر البلاد وعمل بمقتضاها» (١). وجعل أمر القضاء على هذه الكتب إلى أبي بكر بن زهر الحفيد طبيب الخليفة المنصور الذي تمثل أمر الخليفة في جمع الكتب من عند المكتبيين وغيرهم، وان لا يبقى شيء منها، وإهانة المشتغلين بها (٢).

أما على عهد الأسرة النصرية في مملكة غرناطة فلقد عادت الدراسات إلى ما كانت عليه في القرن الخامس، حيث لم يكن للدولة اتجاه معين سوى العودة بالناس إلى ما كان عليه أهل الأندلس، دوما من الاهتمام بالمذهب المالكي. مما أنهى ما كان يعانيه الفقهاء المالكية من ضعف للنفوذ على عهد الموحدين. وتميز العصر بالاهتمام بالدراسات النظرية فازدهرت الدراسات اللغوية والأدبية ازدهارا عظيما، لكن الدراسات العقلية كالطب والفلسفة تناقص الاهتمام بها إلى أن كادت أن تنقرض، وبما يرويه أبو حيان الغرناطي أن مما قوى عزمه على الرحلة عن غرناطة أن بعض العلماء بالمنطق والفلسفة، والرياضي والطبيعي، قال للسلطان: «إني قد كبرت وأخاف أن أموت، فأرى أن ترتب لي طلبه أعلمهم هذه العلوم لينفعوا السلطان من بعدي، قال أبو حيان: فأشير إلي أن أكون من أولئك، ويرتب لي راتب جيد وكسا واحسان، فتمنعت ورحلت مخافة أن أكره على ذلك» (٣).

المعلمون:

كان المعلمون في هذه الحقبة ممن يتمتعون بمستوى علمي متميز، حيث لم يتصدر للتدريس في هذه الحلقات العلمية التي كانت تعقد في المساجد أو المدارس إلا من كان متمكنا في مادته ملما بما يدور في فلكها من مواد وعلى علم عام بعلوم العصر.

ولقد اختلفت مكانتهم باختلاف أماكن تدريسهم، فلم يكن يسمح بالجلوس في المساجد الجامعة أو المدارس إلا لكبار العلماء والمدرسين.

(١) المراكشي، المعجب: ٤٣٧

(٢) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء: ٥٢٣

(٣) أحمد سليم الحمصي: ابن زمرك الغرناطي: ٧٢-٧٣، عن بغية الوعاة للسيوطي: ٢٨١/١.

كما أن التدريس في تلك المرحلة قد عرف التخصص، فكان هناك في كل عصر شيوخ ومعلمون للغة العربية والآداب، وهناك شيوخ ومعلمو القراءات وهناك معلمو الحساب والهندسة، ومعلمو الطب والفلك... الخ.

ولقد منح هؤلاء المعلمون القابا توحى بدرجة تعمقهم في علمهم، فمثلا يقال «كان له حظ» أو «عنده اهتمام ب...» أو «له مشاركة في أشياء من العلم...». ويقال عن معلمين آخرين بأنهم «أفهم الناس...» أو «كان في حفظه آية من آيات الله» أو «كان بحرا من بحور العلم» أو «فقيه».

ولعل لقب الفقيه كان أسمى الألقاب، ولم يكن هينا أن يطلق على أحد، فالشيخ محمد بن محمد بن عبد الله المتوفى (٣٧٢ هـ / ٩٨٢ م) كان لا يرى أن يسمى طالب العلم فقيها حتى يكتهل، ويكمل سنه ويقوى نظره، ويرع في حفظ الرأي، ورواية الحديث ويتميز فيه، ويعرف طبقات رجاله، ويحكم عقد الوثائق، ويعرف عللها، ويطالع الاختلاف، ويعرف مذاهب العلماء والتفسير، ومعاني القرآن، فحينئذ يستحق أن يسمى فقيهاً (١).

أما من الناحية الاجتماعية، فلقد تمتع هؤلاء بمستوى طيب سواء بين الناس أو بين الحكام، وساعدهم علمهم على الانساب إلى طبقة اجتماعية متميزة هي طبقة الفقهاء التي احتلت مكانة طيبة بين أفراد المجتمع.

وليس معنى هذا عدم تعرضهم للنقد بل إنهم يتعرضون لذلك عند الخطأ في مجالس التعليم أو ظهور الضعف في المستوى العلمي، وكذلك الأمر بالنسبة لمن لم تكن أساليبه التدريسية جيدة، فلقد اتهم ابن الفرضي كلا من محمد بن يوسف بن مطروح والفقيه محمد ابن عيسى بن رفاعة الخولاني المعروف بالقلاس بالكذب (٢).

كما تعرض كل من علي بن محمد بن علي بن خروف، وأحمد بن عبد الله بن اطرز للنقد بسبب طرائقهما في التدريس (٣).

الموقف التعليمي في هذه المرحلة :-

كانت الحلقات التي تقام إلى جوار عمود معين من أعمدة المسجد أو في ركن من

(١) ابن فرحون، الديباج المذهب: ٢٥٣

(٢) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس: ٨٠/١، ٣٠٦.

(٣) ابن بشكوال، الصلة ٧٨/١، عبد الجليل الطيار، الدراسات اللغوية في الأندلس: ٣٢ - ٣٣.

المدرسة هي المظهر العام للتعليم في الأندلس، وعرفت هذه الحلقات باسم المعلم الذي كان يدرس فيها خاصة إذا ما استمر مدة طويلة، وكان يشغل الحلقة من بعده ابنه أو أحد طلابه النبهاء.

وكان من العادة أن يكون في الحلقة معيد أو قارئ يقوم بشرح ما غمض من كلام الأستاذ، أو يتولى قراءة النص الذي سيتولى الشيخ شرحه وتفسيره، كما يعهد إليه بحفظ النظام في الحلقة وخاصة أثناء غياب الشيخ أو قبل حضوره، وكان للحلقات نظمها وقواعدها الأخلاقية التي يلتزم بها الطلاب التزاما أدبيا كاملا^(١).

ولم يكن هناك وقت محدد لانعقاد هذه الحلقات أو انفضاضها حيث ارتبط ذلك بالشيخ في المقام الأول، ومدى تفرغه للتدريس، وغالبا ما يكون الصباح هو أكثر الأوقات ملاءمة للتدريس، كما أن بعض المعلمين كان يجعل وقت إقرائه بعد صلاة العصر وحتى صلاة المغرب، ولقد أعطى ذلك الفرصة للطلاب للانتقال من معلم إلى معلم آخر والدراسة في أكثر من مجال في اليوم نفسه.

وكان الإقراء هو أشهر طرق التعليم في هذه المرحلة، ويتلخص في أن يمسك المعلم كتابا يقرأ منه، وينسخ الطلاب نسخهم. أو أن يقرأ أحد الطلاب في حضرة الأستاذ ويقوم الآخرون بالكتابة في الوقت الذي يتولى الأستاذ التصحيح وتعليم النطق السليم للكلمات، والمواضع الصحيحة للوقف والابتداء.

والاملاء أسلوب آخر من الأساليب المستخدمة في الحلقة التعليمية حيث يملئ المعلم من الذاكرة ما يعرفه من علوم ويكتبها عنه طلبته.

واستخدمت المحاور والمناظرة، وهي طريقة تبدأ بالقاء مسألة إما أن يطرحها الطالب أو المعلم نفسه، ثم يبدأ الأستاذ في بيان وجوه هذه المسألة، ويشرحها شرحا مستفيضا معتمدا على الحقائق العلمية التي يلم بها^(٢).

الإجازة:

تنتهي الدراسة في هذه المرحلة بالحصول على الإجازة من الشيخ المعلم سواء في المادة أو في كتاب معين أو عدد من الكتب، ولقد كان الهدف من إعطاء الإجازة للطلاب هو

(١) محمد عبد الحميد عيسى، تاريخ التعليم في الأندلس: ٣٥٤ - ٣٥٨.

(٢) المصدر نفسه: ٣٤٧ وما بعدها.

الحرص على ضبط الرواية وضمان نشر الحقائق العلمية سليمة غير مشوهة (١)، وهي ضمان بعلم الطالب وقدرته على رواية هذا العلم، وهي أنواع: اجازة شفوية أو اجازة تحريرية يبين فيها الشيخ ما يجيزه للطالب أو أن يجيزه باطلاق. وهناك اجازات سماع جماعية تعطى لمجموعة من الدارسين عند سماعهم كتاباً معيناً.

ومع تطور السنوات في الأندلس، ولما كانت تمر به البلاد من ظروف غير طبيعية نجد أن الاجازة قد تحولت لتصبح مجرد شهادة باللقاء أو السماع، دون أن تعني إطلاقاً مدى تعمق حامل الشهادة أو معرفته بما حدد له فيها، حتى لقد أعطيت للأصدقاء والمعارف ولجميع المسلمين من أهل السنة، ممن هو موجود في هذه السنة، أو لكل من أحب أن يحمل عن الشيخ من طلاب العلم المسلمين، كما أصبحت الإجازة شيئاً فخرياً قد يمنح للصبيان أو لغيرهم وإن ظل معناها ثابتاً بالنسبة لطلاب العلم الحقيقيين (٢).

النساء في هذه المرحلة:

يتضح أسلوب تعلم النساء في هذه المرحلة بصورة أوضح منه من مرحلة الكتاب حيث نتبين من دراسة التراجم وجود معلمين تخصصوا في تعليم البنات، ونتبين من ترجمة سعيد بن عثمان المقرئ المتوفى ٤٤٤ هـ / ١٠٥٢ م الطريقة التي كانت تتعلم بها الفتيات على يد معلميهن، فيقال عنه «أقرأ بالمرية مدة، وكانت ريحانة تقرأ عليه القرآن بها، كانت تقعد خلف ستر فتقرأ، ويشير لها بقضيب بيده إلى المواقف، فأكملت السبع عليه، وطالبته بالإجازة، فامتنع، ولكنه كتبها لها فيما بعد» (٣).

ويقال عن الشيخ محمد بن علي بن أحمد الفخار، المتوفى ٧٢٣ هـ / ١٣٢٣ م أنه «استوطن مالقة، وتصدر للإقراء بها، فكان يدرس من صلاة الصبح إلى الزوال، ويقرأ القرآن، ويفتي النساء بالمسجد إلى ما بعد صلاة العصر» (٤).

وثابر محمد بن حمد بن أبي القاسم الأنصاري على الاكتاب، وتأديب النساء (٥). ولقد لعب الآباء الدور الأكبر في تعليم البنات في هذه المرحلة فقام القاضي أبو محمد بن

(١) كريم عجيل حسن، الحياة العلمية في مدينة بلنسية: ٣٤٥.

(٢) ريبيرا خوليان، التربية الاسلامية في الأندلس: ١٥٢ - ١٥٣.

(٣) الضبي، بغية الملتبس: ٤١٢.

(٤) السيوطي، بغية الوعاة: ١/ ١٨٧.

(٥) المراكشي، الذيل والتكملة: مج ٥ ق ٢ ص ٥٨٩.

عبدالحق بن عطية بتعليم ابنته حتى صارت من أهل العلم والفهم والعقل (١).
كما تعلمت النساء على الأكفيا من الرجال مثل نزهون بنت القلاعي التي قرأت على
المخزومي الأعمى (٢).

كما قامت النساء بتعليم النساء، فكانت ولادة بنت المستكفي بالله هي معلمة مهجة
بنت التياني القرطبية (٣)، ومريم بنت أبي يعقوب الأنصاري أديبة شاعرة، وكانت تعلم
النساء الأدب (٤)، كما أن المرأة في الأندلس قد نقلت علمها أيضا إلى الرجال، فرووا عنهن
وقرأوا عليهن، حيث يقول سليمان بن نجاح عن إشراق السويدية العروضية المتوفاة بدانية
٤٤٣ هـ / ١٠٥١ م: «أخذت عنها العروض، وقرأت عليها النوادر لأبي علي القالي
والكامل للمبرد، وكانت تحفظ الكتابين ظاهرا وتكلم عنهما» (٥).

ولذلك انتشر التعليم كثيرا بين النساء في الأندلس، وبرز منهن الأديبات والشاعرات
والطبيبات والعروضيات، والنحويات، واحتلن مكانة طيبة في كتب التراجم والأدب (٦).

المرتبّات:

سبق أن تبينا أن المعلمين في الأندلس قد قبلوا الأجر على التعليم منذ عهد باكر، ولم
يقفوا عند هذه المسألة طويلا لأن المؤدب كان يرى أن التعليم وسيلة من وسائل العيش ولا
يكفيه الاعتماد على بدوات الكرام، أو تقلبات الظروف (٧)، لذلك كان كثير من العلماء
يحصل على مورد رزقه من التعليم، ولم يكن لبعضهم مورد آخر غيره، واختلف دخلهم
حسب مكانتهم، وحسب مادة تخصصهم، فالشيخ أبو علي الشلوين المتوفى ٦٤٥ هـ / ١٢٤٧ م
قال عنه ابن عبد الملك المراكشي: «وذكر لي غير واحد ممن لقينته، انه كان يبلغ أحيانا
مستفاده من الطلبة أربعة آلاف درهم في الشهر الواحد» (٨). أما أبو الربيع الإشبيلي المتوفى

(١) المقرئ، نفح الطيب: ٢٩٢/٤.

(٢) ابن الخطيب، الإحاطة: ٣٤٤/٣.

(٣) ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب: ١٤٣/١.

(٤) المقرئ، نفح الطيب: ٢٩١/٤.

(٥) السيوطي، بغية الوعاة: ٤٥٨/١.

(٦) المقرئ، نفح الطيب: ٢٨٣/٤ وما بعدها، وعبد المتنصر (الريسوني)، الشعر النسوي في الأندلس.

(٧) إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة): ٢٥.

(٨) المراكشي، الذيل والتكملة (السفر الخامس): ٤٦٣/٢.

٦٨٨هـ. فقد كان يحصل على ما يكفيه من صغار الطلبة الذين يرسلهم إليه شيخه الشوليين فإنه كان لا شيء له (١).

وهناك طائفة أخرى من المعلمين تلقت أجرها من الحكام فيما عرف بنظام الجراية، والأمثلة على ذلك كثيرة جداً ومنها أن يحيى بن بقي أبابكر المعروف بالسلاوي أقام بمرسية أعواماً يعظ الناس ولم يكن يأخذ شيئاً من أحد، وكان الأمير بمرسية محمد بن سعد قد جعل له مرتباً (٢)، كما أجرى المعتمد بن عباد راتباً للفقير فرج بن جديدة البطلوسي المتوفى ٤٨٠ هـ (٣). وأجرى الأمير يوسف بن عبد المؤمن المرتبات على الفقهاء والطلبة على قدر مراتبهم وطبقاتهم (٤)، والشيخ محمد بن محمد النمري توفي بغرناطة عام ٧٣٦ هـ تحت جراية من أمرائها (٥). والشيخ محمد بن محمد العبدري كان يسكن سبتة، ثم انتقل إلى غرناطة، وجرت عليه جراية من أحباسها، ووقع له قبول من ناسها (٦).

الفصل الرابع: المرحلة التعليمية الثالثة:

هي مرحلة الانطلاق في مجال التعليم على كبار الشيوخ والفقهاء، وتتميز بأنها لا يقيدتها حدود مكان أو زمان أو مستوى تعليمي معين، وليس لها نقطة توقف أو انتهاء، بل إقبال مستمر على العلم والتعليم حتى يصبح المتعلم من كبار الشيوخ والفقهاء والمعلمين المبرزين في مجال تخصصهم، وأهم أماكن الدراسة فيها هي المساجد والمدارس، ومنازل العلماء، ومجالس الخلفاء والأمراء، كما أنها تتميز عن غيرها بطول المدة وكثرة الرحلة والحصول على الإجازة، وتشبه إلى حد كبير الحلقة التعليمية الثالثة في عصرنا الحاضر وهي مرحلة الدراسات العليا، والحلقة التعليمية أو المجالس العلمية هي سمتها الأساسية في أي مكان من أماكن تدريسها.

الطلاب:

كان طلاب هذه المرحلة من المتقدمين في السن نسبياً، إذ أنهم إنما واصلوا الدراسة والاستماع إلى الشيوخ والعلماء حبا في العلم ورغبة في الاستمرارية وأملاً في الحصول على

(١) السيوطي، بغية الوعاة: ١٢٥/٢.

(٢) الضبي، بغية الملتبس: ٤٩٨.

(٣) المراكشي، الذيل والتكملة (السفر الخامس): ٥٣٨/٢.

(٤) ابن أبي زرع، روض القرطاس: ٢١٧.

(٥) ابن الخطيب، الإحاطة: ٣١/٣ - ٣٣.

(٦) المصدر نفسه: ٢٧/٣ - ٢٨.

مرتبة العلماء المعروفين، ولذلك كانوا جميعا من أهل العلم والمعرفة ومن سبق لهم حضور مجالس العلماء والشيوخ والمؤدبين في المساجد والمدارس أو غيرها من دور العلم المتاحة في ذلك الوقت، ونستطيع أن نتبين مستوى الطلاب العلمي ونوعيتهم من إلقاء نظرة على بعض تراجم علماء هذه المرحلة، فيقال عن الأديب الراوية أبي عبد الله محمد بن سليمان النفزي المعروف «بابن أخت غانم» أن: أصله من مالقة، وبها سكنه، ولكنه لزم قرطبة كثيرا وكان شيخا مسنا من شيوخ أهل الأدب والنحو والرواية وجمع الكتب. أخذ عنه الناس هذين العلمين كثيرا ودرسهما عمره بغير أجر وسمع منه كتب الحديث والغريب وحمل عنه جملة من المشايخ والنبلاء، لعلو سنده ومعرفته^(١). وإذا كان الطلاب عند هذا العالم هم من المشايخ والنبلاء فإننا نجدهم عند عباس بن فرج بن عبد الملك بن هارون الأزدي المتوفى ٨٦٥ هـ/ ١٤٦٠ م من نبهاء مدينة قرطبة^(٢)، أما الامام محمد بن محمد الأنصاري السرقسطي الذي كان من أحفظ الناس لمذهب مالك فقد حضر عليه عدد كبير من جلة العلماء منهم ابن الأزرق^(٣).

شيوخ هذه المرحلة :-

كان علماء هذه المرحلة ممن يشار إليهم بالبنان علما وخلقا ومكانة في فئهم، وكان الحكام وجمهور الناس يحرصون على أن لا يحتل مقعد التدريس في المساجد الجامعة والمدارس إلا من انتهت إليه المهارة في العلم والدين في وقته، وكانت تلك مرتبة تهفو إليها نفوس هؤلاء القوم فلم يدخروا وسعا في الارتقاء بمعارفهم وعلومهم إلى درجة حملت الناس - على اختلاف طبقاتهم - على احترامهم احتراما مهيبا. وإلقاء نظرة على تراجم هؤلاء العلماء تعطينا فكرة واضحة عن مستواهم العلمي، وإلى القارئ الكريم بعض الترجمات من عصور مختلفة:

أبو القاسم إبراهيم بن محمد بن زكريا، المعروف بالإفليلي، من أهل قرطبة المتوفى ٤٤١ هـ/ ١٠٤٩ م: كان من أئمة النحو واللغة، وله معرفة بالكلام على معاني الشعر، وشرح ديوان المتنبي شرحا جيدا، وهو مشهور، وكان متصدرا بالأندلس لإقراء الأدب، وكان حافظا للأشعار، ذاكرة للأخبار، وأيام الناس^(٤).

(١) القاضي عياض، الغنية «فهرست شيوخ القاضي...» ١٢٧.

(٢) المراكشي، الذيل والتكملة، (السفر الخامس): ٤٨٦/٢ - ٤٨٧.

(٣) ابن الأزرق، بدائع السلك في طبائع الملك: ١٤/١.

(٤) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٣٣/١ - ٣٤.

أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحاربي المتوفى ٥٤٢ هـ / ١١٤٧ م .
«فقيه محدث مشهور ، أديب ، نحوي ، شاعر ألف في التفسير كتاباً ضخماً أربى فيه على كل متقدم (١) . أما أبو علي عمر بن محمد بن عبد الله الأزدي المعروف بالشلوبين المتوفى ٦٤٠ هـ فقد كان أسند من بقي في المغرب ، وكان في العربية بحراً لا يجارى ، وحبراً لا يبارى ، تصدر لإقراء النحو نحواً من ستين عاماً (٢) . والأمام أبو محمد الأنصاري السرقسطي المتوفى ٨٦٥ هـ كان عالم غرناطة ومفتيها ، كما كان من أحفظ الناس لمذهب مالك (٣) .

وكان أهل الأندلس حريصين على أن يتصدر مساجدهم الجامعة أمثال هؤلاء العلماء الأجلاء ، ومن ذلك دعوة أهل مالقة لعالم اللغة الكبير أبي علي محمد بن عبد المجيد الأزدي الرندي المتوفى ٦١٦ هـ / ١٢٨٩ م للتدريس في مسجدهم والإقراء به بعد وفاة أبي القاسم السهيلي فأجابهم إلى ذلك ، ولم يفارقهم إلى حين وفاته (٤) . كما أن محمد بن يحيى بن علي بن مفرج الأنصاري المتوفى ٦٥٧ هـ / ١٢٥٨ م قد جلس للناس بالجامع الكبير بعد أبي عبد الله الفنجال (٥) .

وأما محمد بن إبراهيم الأوسي المتوفى ٧١٥ هـ / ١٣١٥ م من أهل مرسية فقد أقرأ التعاليم والطب والأصول بغرناطة ، لما استقدمه السلطان ثاني الملوك من بني نصر ، من مدينة بجاية فانتفع الناس به (٦) . وعلي بن عمر بن إبراهيم بن عبد الله الكناني المتوفى ٧٣٠ هـ / ١٣٣٠ م كان أوحدهم أهل زمانه علماً وتخلقاً ، وتواضعاً وتفناً ، ورد إلى غرناطة مستدعي عام ٧١٢ هـ / ١٣١٢ م . وقعد بمسجدها الأعظم يقرئ فنونا من العلم ، من قراءات وفقه وعربية وأدب (٧) .

وكان العلماء المختارون للتدريس في المدارس من تلك الطبقة الرفيعة ، فمنهم الحسين بن محمد بن منيرة المعروف بأبي علي الصديقي المتوفى ٥١٤ هـ / ١١٢٠ م صاحب مدرسة مرسية ، كان إمام عصره في علم الحديث ، وآخر أئمة في الأندلس ، كان حافظاً

(١) الضبي ، بغية الملتبس : ٣٨٩ .

(٢) ابن فرحون ، الديباج المذهب : ١٨٥ - ١٨٦ .

(٣) ابن الأزرق ، بدائع السلك في طبائع الملك : ١٤ .

(٤) رضا عبد الجليل الطيار ، الدراسات اللغوية في الأندلس : ٣٢ .

(٥) السيوطي ، بغية الوعاة : ٢٦٥ / ١ .

(٦) ابن الخطيب ، الإحاطة : ٦٩ / ٣ .

(٧) المقرئ ، نفح الطيب : ٥٠٧ / ٥ .

للحديث، وأسماء رجاله وعلمه، وكان إماما في الفقه (١).

والشيخ الفقيه محمد بن أحمد الرقوتي المرسى، الذي بنى له الفونس العاشر مدرسة في مرسية، كان حجة في المعرفة القديمة والمنطق والهندسة والعدد والموسيقا والطب كما كان فيلسوفا، وطيبيا ماهرا، آية الله في المعرفة بالألسن، يقرئ الأمم بالسنتهم فنونهم التي يرغبون في تعلمها، شديد البأس، مترفعا، متعظما (٢).

ومن علماء المدرسة النصرية نجد محمد بن علي بن أحمد الخولاني المتوفى ٧٥٤ هـ/ ١٣٥٤ م أستاذ الجماعة، وكان رحمه الله، عاكفا على العلم ملازما للتدريس إمام الأئمة من غير مدافع، مبرزاً، إمام أعلام البصريين من النحاة منتشر الذكر، بعيد الصيت، عظيم الشهرة، مستبحر اللفظ، ويتفجر بالعربية تفجر البحر، ويترسل استرسال القطر فقد خالطت دمه ولحمه، لا يشكل عليه منها شكل ولا تشذ منه حجة (٣).

وفرج بن قاسم بن لب، شيخ شيوخ غرناطة، كان شيخا فاضلا عالما متفنا، انفرد برئاسة العلم، وإليه كان المفزع في الفتوى، وكان إماما في أصول الدين وأصول الفقه (٤).
نظام الدراسة:

كانت الحلقات التي تعقد هي الوسيلة الشائعة للتدريس حيث يجلس الشيوخ مستندين إلى جوار عمود بالمسجد أو المدرسة، ويلتف حولهم طلابهم يستمعون إليهم.

ويرجع اتساع الحلقة أو ضيقها إلى مكانة الأستاذ نفسه، ويمكن لنا أنه نتصور الإقبال الشديد على حلقات هؤلاء الكبار، ويبدأ الدرس بحمد الله والصلاة والسلام على رسول الله، ثم يأخذ المعلم في النقاش حسب المادة التي يدرسها، ولذلك اختلفت طرق التدريس في هذه الحلقات باختلاف المادة العلمية التي يتولى الأستاذ شرحها، فقد كان أحمد بن عثمان من أهل طليطلة، المتوفى ٤١٧ هـ/ ١٠٢٦ م يبدأ المناظرة بذكر الله، والصلاة على محمد عليه السلام. «ثم يورد الحديث والحديثين والثلاثة والموعظة ثم يبدأ بطرح المسائل من غير الكتاب الذي كانوا يتناظرون عليه فيه» (٥).

(١) ابن فرحون، الديباج المذهب: ١٠٤.

(٢) المقرئ، نفح الطيب: ١٣٣/٣، وابن الخطيب، الإحاطة: ٦٨/٣.

(٣) ابن الخطيب، الإحاطة: ٣٥/٣.

(٤) ابن فرحون، الديباج المذهب: ٢٢٠.

(٥) ابن بشكوال، الصلة: ٢٦٢/١.

ولم يكن للحلقات وقت معين لانعقادها أو فضها إنما يرتبط ذلك بالأستاذ في المقام الأول، فقد يبدأ من الاستشارة التي لا تستغرق أكثر من لحظات ويمكن ان يمتد إلى ساعات طوال، ولكن العادة أن وقت الدراسة كان يتراوح ما بين الساعة أو الساعتين حتى لا يمل الطلاب، اللهم إلا في ظروف خاصة، فحينما هبط قرطبة أبو إسحق إبراهيم بن جعفر اللواتي، المتوفى عام ٥١٣ هـ / ١١١٩ م. ولم يستطع التوقف فيها طويلا، فتح حلقة مستمرة بالمسجد الجامع. ولازم الناس سماعه بالجامع ليلا ونهارا، وكانوا يبيتون بالمقصورة لكي ينتهي من تدريس كتاب «جامع الترمذي» في الحديث، حتى كمل في فترة يسيرة لفرط استعجاله (١).

وكان مستوى المناظرة في تلك الحلقات مرتفعا الى درجة عالية، فينقل ابن فرحون وصف مناظرة بين القاضي أبي بكر بن العربي وحمد بن ورد بقوله: «إنهما سهرتا ليلة وأخذتا في التناظر والتذاكر، فكان عجباً يتكلم أبو بكر فيظن السامع أنه ما ترك شيئا إلا أتى به، ثم يحببه أبو القاسم بأبدع جواب ينسي السامع ما سمع قبله (٢).

ورغم ذلك فإن الظروف السياسية وتأثيرها الاقتصادي والاجتماعي وما كانت تمر به بلاد الأندلس، قد أثر أيضا على الحياة العلمية حيث نجد بعض المنازعات بين العلماء في هذه الفترة، «وألف عدد منهم كتباً ورسائل في الرد على غيرهم، حتى سارت هذه حالة تلفت النظر، وهي ظاهرة ليست بمستغربة في العصور المتأخرة التي يندر فيها الابداع في التأليف والفكر ويشغل فيها المؤلفون انفسهم بالرد على بعضهم أو غيرهم (٣).

كما تعرض بعض العلماء للنقد رغم مكانتهم، فمثلا قيل عن علي بن محمد بن علي ابن خروف المتوفى ٦٠٩ هـ / ١٢١٢ م. أنه «كان شديد الضجر عند تتبع الحديث والمساءلة له فعهدى به مرات إذا ضويق في المجلس يأخذ قرقيه (حذاءه) ويقوم من مجلسه» (٤).

ويميز التعليم في هذه المرحلة جانب آخر وهو طول الصحبة للمعلمين إلى درجة ملفقة للنظر، فأحمد بن محرز بن خالد بن مهدي المقرئ، المتوفى ٤٣٢ هـ / ١٠٤٠ م. روى عن

(١) ريبيرا خوليان، التربية الاسلامية في الأندلس: ١٤٥: وابن الأبار، المعجم: ٥٤
(٢) ابن فرحون، الديباج المذهب: ١٨٥.

(٣) الأمثلة على ذلك كثيرة جدا في كتاب رضا عبد الجليل الطيار، الدراسات اللغوية في الأندلس: ٣٥ وما بعدها.

(٤) المراكشي، الذيل والتكملة (السفر الخامس): ٣٢٢/١.

مكي بن طالب المقرئ، وأكثر عنه واختص به (١)؛ وعلي بن أحمد بن أبي قوة الأزدي، المتوفى ٦١٨ هـ / ١٢١١ م لازم استاذه أبا القاسم ابن حبيش عشرين سنة (٢)، وعثمان بن محمد ابن عبدالله العبدري المتوفى ٦٦٣ هـ / ١٢٦٤ م لازم شيخه عبدالرحمن بن يوسف بن الحسن خمسة عشر عاما (٣).

أما أبرز ما يميز الدراسة في هذه المرحلة العالية فكانت الرحلة في طلب العلم من مكان إلى آخر، والحصول على أكبر قدر ممكن من المعرفة، وكلما طالت مدة الرحلة، وكثر عدد العلماء الذين التقى بهم الدارس زادت مكانته.

وانقسمت الرحلة إلى قسمين رئيسيين، فهناك الرحلات الداخلية أي داخل مدن الأندلس، وكانت تحقق لأهلها مكانة عالية لا تقل عن الرحلات الخارجية، فيقال عن العالم الكبير يوسف بن عبدالبر النمري، المتوفى ٤٠٨ هـ / ١٠١٧ م. إنه: فقيه حافظ مكث، عالم بالقراءات، وبالاختلاف في الفقه، ويعلم الحديث والرجال، قديم السماع، كثير الشيوخ، على أنه لم يخرج من الأندلس، لكنه سمع من أكابر أهل الحديث بقرطبة وغيرها، ومن الغرباء القادمين إليها (٤). كما أن (أحمد بن عبدالله بن محمد المعروف بابن الباجي، كان يقول عنه الضبي: «لم أر بقرطبة ولا بغيرها من كور الأندلس رجلا يقاس به في علمه بأصول الدين وفروعه... جمع له والده علوم الأرض فلم يحتج إلى أحد، إلا أنه رحل متأخرا للحج» (٥). وكانت الرحلة الداخلية قصيرة نسبيا، وإن فضل بعض العلماء أن تطول ما أمكن، فيرى القاضي أبو القاسم عبدالرحمن بن محمد أنه قال: «لما رحلت إلى قرطبة قرأت على الحافظ أبي بكر - يقصد أبابكر بن العربي - ولزمته، فسمعت ذات يوم أذكر الانصراف إلى وطني بالمرية، فقال لي: ما هذا القلق؟ - أقم حتى يكون لك في رحلتك عشرة أعوام كما كان لي» (٦).

أما الرحلات الخارجية الأندلسية فقد أخذت طريقها من الأندلس إلى باقي أصقاع العالم الإسلامي، وكان الحج حافزا آخر إلى جانب الحافز العلمي، مما جعل الرحلة بين

(١) ابن الأبار، الصلة: ٤٨/١.

(٢) المراكشي، الذيل والتكملة (السفر الخامس): ١٥٤/١.

(٣) المصدر نفسه، (السفر الخامس): ١٣٧/١.

(٤) الحميدي، جذوة المقتبس: ٣٤٥ - ٣٤٦.

(٥) الضبي، بغية الملتبس: ١٨٤.

(٦) المصدر نفسه: ٩٣.

الأندلسيين شبه فرض أكيد لكل من كان يرغب في مواصلة تعليمه العالي، والأمثلة على رحلات الأندلسيين كثيرة جداً، ويكفي للدلالة على رحلات تلك الفترة رحلة القاضي أبي بكر بن العربي رحمه الله (١).

وهناك الكثيرون من الطلاب ممن قاموا بالرحلتين الداخلية والخارجية معا حيث يبدأ بالأولى ثم ينتهي عليها بالرحلة إلى خارج الإقليم.

ولم يكن الطالب يرحل إلى مدينة بغرض التعليم على معلم واحد فقط، رغم أن شهرة المعلم تجذب الطلاب إلى مدينته مثلما هو الحال على عهد أبي علي الصديفي في مدينة مرسية، بل إن الطلاب كانوا ينتهزون فرصة وجودهم في مدينة ما للاستماع ولقاء أكبر عدد من شيوخها وعلمائها.

مجالس الخلفاء والأمراء :-

كانت مجالس الخلفاء والملوك والأمراء في الأندلس المعين الذي تستقي منه الحركات العلمية والأدبية والخلقية، وكان لها خطورتها على الحياة العقلية بصفة عامة والتعليمية بصفة خاصة، فلقد كان هؤلاء لا يضمون إلى مجالسهم إلا أساطين الأدباء والعلماء الذين أنجبهم ذلك العصر الزاهر، والذين كانوا قدوة لجمهور الأدب والعلم في عصرهم (٢).

ففي هذه المجالس كانت توضع السياسة التعليمية، ويلمس كبار العلماء من الخلفاء أو الأمراء ما يجب أن يهتموا به من علوم. ففي مجالس مجاهد العامري ازدهرت القراءات ازدهارا كبيرا، أما في مجالس بني العباد فكان الشعر والشعراء مجالهم، وكان مقتصرًا من العلوم على علم الأدب، وما يتعلق وينضم إليه. واهتم المرابطون بالمذهب المالكي اهتماما كبيرا، ولم يكن يقرب من أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين إلا من علم علم الفروع كما سبق أن بينته هذه الدراسة، ويكفي للدلالة على خطورة المجالس العلمية للخلفاء والأمراء وأثرها على السياسة التعليمية ما يرويه أبو بكر بن الجذ قائلًا: «لما دخلت على أمير المؤمنين أبي يعقوب أول دخلة دخلتها عليه، وجدت بين يديه كتاب ابن يونس فقال لي: يا أبا بكر، انظر في هذه الآراء المتشعبة التي أحدثت في دين الله، أرايت يا أبا بكر المسألة فيها أربعة أقوال أو خمسة أقوال أو أكثر من هذا، فأني هذه الأقوال هو الحق؟ وأيها يجب أن يأخذ به المقلد؟ فافتتحت أبين له ما أشكل عليه من ذلك فقال لي وقطع كلامي: يا أبا بكر ليس إلا

(١) الضبي، بغية الملتبس: ٩٢ وما بعدها.

(٢) مصطفى محمد علي السيوفي، ملامح التجديد: ٤٨.

هذا، وأشار إلى المصحف، أو هذا وأشار إلى كتاب سنن أبي داود وكان عن يمينه أو السيف» (١).

وكان لهذه المجالس نظام خاص تتبعه، فكان الخليفة يتصدر المجلس فخطيب الجماعة، ثم قاضي الجماعة، ورئيس الأطباء فأكبر علماء الحضرة، فباقي الأعلام الحاضرين على اختلاف مراتبهم (٢).

كما أنها كانت جادة فلا هو، ولا هزل بل تلاوة لكتاب الله العزيز، ومدارسة الأحاديث الصحيحة النبوية، والاشتغال بالعلوم الشرعية، وإقام الصلوات، فهكذا كان دأب أصحابه (٣).

ولقد كان حضور تلك المجالس فرصة طيبة للعلماء، إما أن تصل بهم إلى مكانة عالية أو أن تسقط مكانتهم إلى الأبد، فكان بمن يحضر مجلس أمير المؤمنين أبي يعقوب يوسف، العالم أبوبكر بن طفيل، وكان الخليفة شديد الشغف به، والحب له حتى أنه كان يقيم في القصر عنده أياما ليلا ونهارا لا يظهر.

ولم يزل أبوبكر هذا يجلب إليه العلماء من جميع الأقطار، وينبه عليهم ويحضه على إكرامهم، والتنويه بهم، وهو الذي نبهه على أبي الوليد بن رشد، فمن حينئذ عرفوه ونبه قدره عندهم (٤).

أما محمد بن عبد الله بن إدريس العبدري المتوفى ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م. فقد كان يحضر مجلس عبد المؤمن مع أكابر من يحضر من العلماء، فيشرف على أكثرهم بما لديه من التحقيق بالمعارف، إلى أن أنشد أبياتا غزلية، فهجره عبد المؤمن ومنعه من الحضور بمجلسه، وصرف بنيه عن القراءة عليه، وسرى ذلك في أكثر من كان يقرأ عليه ويتردد عليه (٥).

والشيخ أحمد بن يحيى بن السعود العبدري ويكنى أبا العباس المتوفى ٥٩٩ هـ / ١٢٠٢ م كان يرتدي ملابس غريبة يحضر بها مجلس خواص الطلبة ومجتمعهم بدار الامارة، ومع ذلك فلم يزل يحاضر طلبة العلم بمجلس المنصور الخاص بهم، يذاكرهم بين يديه، مرعي الجانب ملحوظا بعين التكرمة، محترما لشاخته واضطلاعه بالمعارف إلى ان

(١) المراكشي، المعجب: ٤٠١-٤٠٢.

(٢) حسن علي حسن، الحضارة الاسلامية في المغرب والأندلس: ٤١٥.

(٣) المصدر نفسه: ٤٣١.

(٤) المراكشي، المعجب: ٢٤٠ وما بعدها.

(٥) ابن الخطيب، الإحاطة: ٨٦/٣-٨٧.

وجد منه يوما في مجلس المنصور ريح مسكر، فاستثبت أمره، فجلد وصرفه إلى منزله واستمر في هجرانه ومنعه من حضور مجلسه إلى أن توفي المنصور وولي الناصر فتركه مغضبا عليه (١).

المرتبات :-

كان معظم هؤلاء العلماء الكبار من أصحاب المناصب العليا كالقضاء والشورى وغيرها، ومن ثم لم تكن حاجتهم إلى مرتبات مثل غيرهم من معلمي الصبيان أو مؤدبي الشباب، ومع ذلك فقد خصص لهم مرتبات وجراية، ومن ذلك ما قيل عن الخليفة يعقوب ابن يوسف بن عبد المؤمن من إجراء المرتبات على الفقهاء والطلاب على قدر مراتبهم وطبقاتهم (٢).

وما يورده المراكشي عن الفيلسوف الطيب أبي بكر بن طفيل من أنه كان يأخذ الجامكية مع عدة أصناف من الخدمة من الأطباء والمهندسين والكتاب والشعراء والرماة والأجناد إلى غير هؤلاء من الطوائف (٣).

وما يرويه ابن الخطيب عن الشيخ الرئيس أبي جعفر احمد بن إبراهيم المتوفى ٧٦٣ هـ وأنه قام بانتشاله من مهواه، «ودللت على البر مثواه، وأسנית له الجراية ونشرت من تعظيمه الراية» (٤).

ومع ذلك فقد وجد في الأندلس كثير من العلماء ممن علموا احتسابا لوجه الله سبحانه مثل الشيخ أبي علي الغساني الذي حينما دفع له تلميذه محمد بن عبد الرحمن جملة من المال في مقابل إقرائه، أخذه ووضع على رأسه، وقال لا آخذ على هذا شيئا أبدا، ولو أخذت من أحد لأخذت منك (٥). بل لقد وصل الحال ببعض العلماء الأثرياء أنهم كانوا يستضيفون طلابهم الغرباء لأكثر من ثلاثة أشهر يطعمونهم ويقدمون لهم المأوى، وبالطبع لا يتناولون منهم أجرا مثل الشيخ احمد بن سعيد بن كوثر الأنصاري الذي كان يستضيف أكثر من ٤٠ طالبا يقيمون ويأكلون ويتعلمون (٦).

(١) المراكشي، الذيل والتكملة (السفر الأول): ٥٦٦ - ٥٦٧.

(٢) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب في روض القرطاس: ٢١٧.

(٣) المراكشي، المعجب: ٣٥٠.

(٤) ابن الخطيب، الإحاطة: ٢٢٢/١.

(٥) ابن الأبار، المعجم: ١٣٧.

(٦) ابن بشكوال، الصلة: ٤١.

النساء في هذه المرحلة :

شاركت النساء الأندلسيات بباع طويل في الحركة العلمية العالمية في الأندلس حتى شهد لهن حافظ عصره المقري حين ذكر جملة من نساء أهل الأندلس اللاتي لهن اليد الطولى في البلاغة، كي يعلم أن البراعة في أهل الأندلس كالغريزة لهم، حتى في نسايتهم وصبيانهم (١). والأمثلة كثيرة على ذلك ومنها أن ولادة بنت المستكفي بالله المتوفاة ٤٨٠ هـ/ ١٠٨٧ م كانت أديبة، شاعرة، جزلة القول، حسنة الشعر، وكانت تناضل الشعراء وتساجل الأدباء، وتفوق البرعاء. وكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصير، وفناؤها ملعبا لجياد النظم والنثر (٢).

ومريم بنت أبي يعقوب الأنصاري، كانت أديبة شاعرة جزلة مشهورة وكانت تعلم النساء الأدب، وتحتشم لدينها وفضلها (٣).

وأم الهناء بنت القاضي أبي محمد بن عبدالحق بن عطية التي كانت حاضرة النادرة، سريعة التمثل، من أهل العلم والفهم والعقل، ولها تأليف في القبور (٤).

والشاعرة حفصة بنت الحاج الركونية أستاذة الشواعر في عصرها لكونها تمتلك قوة شعر هائلة، وأداة مطواعة فنية بوأها تلك المكانة الأدبية، ولقد ذكرها ابن الخطيب نقلا عن ابن بشكول بأنها كانت أستاذة وقتها (٥).

ومن نساء المرابطين، كانت الحرة حواء أديبة شاعرة جلييلة ماهرة، وينقل ابن عذاري عن مالك بن وهيب قوله: مرت الحرة حواء اللمتونية بمراكش بمجلس الكتبة والشعراء، وكانت تحاضرهم فيه، وكانت ذات نباهة وخطر فاجتمع يوما في ذلك المجلس جماعة، فلما غص المجلس، أقبلت الحرة تزيدهم وهم يتحادثون، ويأخذون الشعر (٦)، ثم يكمل الرواية فيبين مساجلتها لهم الأشعار وتفوقها على الحاضرين.

أما الموحدون فقد أولوا النساء المثقفات على عصرهم التفاتا خاصا، ومن بنات

(١) المقري، نفح الطيب: ١٦٦/٤.

(٢) المصدر نفسه: ٢٠٧/٤ - ٢٠٨.

(٣) المصدر نفسه: ٢٩١/٤.

(٤) المقري، نفح الطيب: ٢٩١/٤.

(٥) ابن الخطيب، الإحاطة: ٤٩٣/١ - ٤٩٤.

(٦) محمد المنتصر الريسوني، الشعر النسوي بالأندلس: ١١٩ وما بعدها.

الخلفاء المثقفات، زينب بنت يوسف بن عبدالمؤمن وكانت عالمة، صائبة الرأي فاضلة معروفة بالتفوق على نساء زمانها(١).

ويرى المستشرق الإسباني خوليان ريبيرا أن النساء الأندلسيات لم يقف نشاطهن عند حد الدراسة في إسبانيا فحسب، وإنما رحلن إلى الخارج ليدرسن كالرجال سواء بسواء(٢).

تعليم الخاصة :

تعتبر تربية أبناء الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة، إحدى القضايا الأساسية الهامة في التربية الأندلسية.

وتأتي أهمية هذه النقطة للأثر الحاسم الذي يتركه المعلمون في نفوس متعلميهم ودور هؤلاء المعلمين في تشكيل سلوك الأبناء مستقبلاً مما يجعله ينسحب أيضاً على جموع المواطنين والسكان.

ولقد عرف المعلمون الذين يقومون بهذه المهمة باسم المؤدبين، نتيجة ما يتحملونه من عبء التعليم والتأديب في الوقت ذاته، وإن لم يقتصر اسم المؤدب على هؤلاء فقط، وإنما حمله معلمو الكتاب وغيرهم من طبقات المعلمين.

ولخطورة مهمة التأديب اهتم حكام الأندلس وكبراء رجالها اهتماماً كبيراً في التدقيق عند اختيار المؤدبين لأولادهم، واستشاروا في ذلك أهل الثقة من رجالهم واختبروا بأنفسهم علم معلمي أولادهم وأخلاقهم، ومن ذلك أن المنصور الموحدي (٥٨٠ - ٥٩٥ هـ / ١١٨٤ - ١١٩٩ م)، طلب من قاضيه أن يختار له رجلين لغرضين من تعليم ولده، وضبط أمره، فعرفه برجلين، قال في أحدهما: وهو بحرفي علمه، وقال في الآخر: هو بر في دينه. ولما خرج المنصور أحضرهما واختبرهما فقصرأ بين يديه، وأكذبا الدعوة. فوقع المنصور على رقعة القاضي: اعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ظهر الفساد في البر والبحر(٣).

ولقد ترك بعض المؤدبين تأثيراً سيئاً على طلبتهم وصل بهم الى درجة التمرد على

(١) ابن عذاري، البيان المغرب: ٥٧/٤.

(٢) ريبيرا خوليان، التربية الإسلامية في الأندلس: ١٦٢.

(٣) محمد المتوني، العلوم والآداب والفنون: ٣٨، حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس: ٤٩٩.

والوالدين، والتسبب في مأساة عائلية مثلما حدث مع معلم الأمير اسماعيل بن يوسف بن اسماعيل بن فرج بن نصر، سلطان غرناطة الذي حكم من (٧٦٠ - ٧٦١ هـ / ١٣٥٩ - ١٣٦٠ م). يقول عنه ابن الخطيب: واستدعى له ولأخيه المعلم الذي كان السبب في إفاته أرماقهما، واعداد حياتهما، الشيخ السفلة محمد البطروجي البائس (١).

ولهذا كان الآباء عندما يكتشفون ثغرة في أخلاق معلمي أولادهم، يعملون على تلافيها، بل ويمنعونهم من تدريس أبنائهم، ومن ذلك ما حدث لأبي بكر محمد بن عبد الله العبدري المتوفى (٥٦٧ هـ / ١١٨٠ م). فقد كان يحضر مجلس عبد المؤمن بن علي الخليفة الموحيدي، مع مجموعة من العلماء، وييدي ما عنده من المعارف معظماً موقراً، إلى أن انشد يوماً في المجلس أبياتاً ثلاثة قالها تغزلاً في شاب من أهل اغمات، فكان ذلك سبباً لأن هجره عبد المؤمن بن علي، ومنعه من الحضور في مجلسه، بل وصرف بنيه عن القراءة عليه (٢).

تأديب الخاصة في الصغر :-

لم يكن تأديب الصبيان، أولاد الخلفاء والكبراء مختلفاً في محتواه كثيراً عن ما يقدم لأبناء العامة في المكاتب، فالأساس التعليمي في تلك الفترة تحفيظ القرآن، وتعليم القراءة والكتابة، أما الاختلاف فهو تميز هؤلاء بنوع معين من المعلمين أكثر ثقافة وأعمق علماً، وفي سن البداية التعليمية، كما أن هناك بعض الجوانب التعليمية والتربوية الأخرى التي يتم التركيز عليها بغرض الاعداد لمستقبل معين مثل التدريب على بعض أعمال الفروسية والقيادة أو توجيه الملكات نحو فن معين من فنون الحياة، ولذلك يمكن القول، إن المعرفة التي حصل عليها الأولاد المؤدبون تجاوزت كماً ونوعاً المعرفة التي حصل عليها الأولاد في المكاتب، وذلك لطول مدة التأديب بشكل عام، وتجاوز عمر المؤدبين عمر المكتبيين. ويمكن القول إن بعض الصبيان المؤدبين تجاوزوا في معرفتهم مستوى بعض طلاب حلقات العلم في المساجد (٣).

ومن الأدلة على حرص الآباء على أن يبدأ أبنائهم تعليمهم مبكراً، ما ذكره أبو بكر ابن العربي عن نفسه قائلاً: «كان من حسن قضاء الله تعالى أن رتب لي أبي حتى حذقت القرآن في العام التاسع» (٤).

(١) ابن الخطيب، الاحاطة: ٣٩٨/١

(٢) السيوطي، بغية الوعاة: ١٤٧/١، محمد المنوي، العلوم والآداب والفنون: ٤٠

(٣) كريم عجبل حسن، الحياة العلمية في مدينة بلسية: ٢٤٢

(٤) المقرئ، نفح الطيب: ٤٣/٢

تعليم الخاصة بعد مرحلة الصبا :-

حينما يبدأ أبناء الأمراء والكبراء مرحلة السماع فإن منهجهم التعليمي كان يعتمد في المقام الأول على الدراسات اللغوية والأدبية، فلقد اختار المظفر بن الأفتس صاحب بطليوس لتأديب أولاده: ابا عبدالله محمد بن يونس الحجاربي المتوفى (٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م)، وكان مقدماً في المعرفة والنحو واللغة، وكتب الاشعار والأخبار (١). وكذلك كان أحمد بن حسن بن سيد الجراوي المالقي، أحد كبار النحاة والأدباء في الأندلس، وكان شاعراً كاتباً بليغاً استدعاه الخليفة عبد المؤمن بن علي ليؤدب أبناءه (٢).

كما أن الدراسات الدينية قد حظيت أيضاً باهتمام بالغ ضمن مناهج التدريس لأبناء الخلفاء ولمعظم أهل الأندلس، ومن ذلك حرص المنصور على أن يقوم عبدالله بن محمد الخمي بن علوش أستاذ التجويد والقرآن والعربية، لتأديب ابنه محمد الناصر، وكذلك كان عبدالله بن سليمان بن حوطة الله، يلقنه حديث رسول الله (ﷺ) (٣).

كما تأثر المنهج التعليمي خلال هذه المرحلة بمستقبل الأبناء المتعلمين ووجهة نظر الآباء، ويقدم لنا الأمير عبدالله بن زيري الغرناطي (٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م)، وصفاً حياً رائعاً لوجهة نظره في إعداد ولي العهد فيقول «وقد كنا معشر أهل بيت المملكة، نرى أن أكبر ما نتأدب به أعمال السياسة في طلب الرئاسة، والسعي لها بكل الوجوه، واحضار الأذهان ما لو أن المفرط في بعض ذلك منا يكون أفقه الناس في سائرهما من العلوم، لكان عندنا ناقصاً، لا يلح لهذا الشأن، حتى وقع التنافس عليه» (٤). ثم يمضي الأمير مبيناً كيف قام جده بعد إنهاء عبدالله من المكتب باجرائه بين يديه وتدريبه على هذه المهمة الخطيرة. مكان التأديب:

تعلم أبناء الأمراء والخلفاء والملوك من أهل الأندلس في قصورهم، حيث جعل بهذه القصور أماكن خاصة للتعليم أو في مكتبة القصر، وكذلك الغالبية من كبراء الأندلس حيث ذكر أبو بكر بن العربي عن نفسه أنه بعد أن حفظ القرآن قرن به والده ثلاثة من المعلمين يتعاقبون عليه من صلاة الصبح الى صلاة العصر ثم ينصرفون عنه (٥).

(١) الأمير شكيب أرسلان، الحلل السندسية: ٧١/٣.

(٢) حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس: ٤٩٩.

(٣) المصدر نفسه: ٩٠.

(٤) ابن بلقين، مذكرات الأمير عبدالله: ١١ - ١٣.

(٥) محمد عبد الحميد عيسى، تاريخ التعليم في الأندلس: ٤٥٠ - ٤٥١.

وكان أبناء الكبراء في الأندلس يذهبون في بعض الأحيان، الى مجالس معلميهم في المسجد فمن ذلك أن محمد بن خطاب أبا عبدالله النحوي الأزدي كان من الأدباء المشهورين والنحاة المذكورين، وكان يختلف اليه في علم العربية، أولاد الأكابر وفؤي الجلالة (١).

تأديب النساء:

تمتعت النساء من بنات الخلفاء وكبار رجال الدولة في الأندلس بفرصة طيبة في مجال التعليم، وكان تعليمهن يتم في المنازل والقصور، وتولى تعليمهن سيدات من أهل البلاط أو بعض المؤدبين المشهود لهم بالصلاح والتقوى، وكان اختيار المعلمين والمعلمات يتم بواسطة الآباء شخصياً، فالخليفة المنصور الموحي حينما استمع الى علي بن محمد بن يوسف الفهري وهو يقرأ القرآن، أخذ قلبه طيب نغمته، فقربه واستخلصه، وأمره بتعليم أولاده... ثم خبر أحواله، وعرف صوته وعفافه، فأمره بتعليم بناته، فاستغفاه من ذلك معتذراً بأنه يدرك بعض التفرقة بين الألوان، فأخطأه ذلك عنده، لما تحقق من صدق نصحه، وألزمه تعليمهن، وكان سبب إثرائه وسعة حاله (٢).

كما قامت حفصة بنت الحاج الركونية، المتوفاة (٥٨٦ هـ / ١١٩٠ م) بالتأديب في قصر المنصور مؤدبة للنساء (٣).

ومن الطريف اننا نجد في التراث الأندلسي معلمين تخصصوا في تعليم الوصفاء بالقصر الخلافي، ومنهم أحمد بن مضا بن عبد الجبار، الذي كان أديبا متفنا في علوم اللسان العربي، أدب طويلاً للخاصة والعامة، ثم قصر على تأديب الوصفاء بالقصر (٤).

أما الدور المهم الذي لعبته النساء فكان في قيامهن بتعليم أبناء الكبراء من أهل الأندلس، حيث يتبين مما أورده عنهن ابن حزم، أنهن كن يتولين مهمة التعليم داخل القصور، يقول ابن حزم: «ولقد شاهدت النساء وعلمت من أسرارهن ما لا يكاد يعلمه غيري لأني ربيت في حجورهن، ونشأت بين أيديهن... وهن علمني القرآن، ورويتني كثيراً من الأشعار، ودربتني في الخط (٥).

(١) الحميدي، جذوة المقتبس: ٥٠، الضبي، بغية الملتبس: ٧٤

(٢) المراكشي، الذيل والتكملة (السفر الخامس) القسم الأول: ٣٩٩

(٣) ابن الخطيب، الاحاطة: ٤٩٣/١، المقرئ، نفح الطيب: ١٧١/٢ وما بعدها.

(٤) المقرئ، نفح الطيب: ١٧١/٤، والمراكشي، الذيل والتكملة (السفر الأول): ٥٤٣

(٥) ابن حزم، طوق الحمامة: ٥، وعبد الحليم عويس، ابن حزم الأندلسي: ٦٢

خاتمة :

نتبين من الدراسة السابقة مدى اهتمام الأندلسيين حكاما وعامة بالتعليم ، وكيف تدرجوا في مراحلهم منذ الصغر الباكر الى أن وصلوا إلى مراحل متقدمة من السن والعلم ، وكان ذلك هو السبب في تميز صقع الأندلس حتى آخر أيامه بالكثرة من العلماء والأدباء والفقهاء وأهل العلم عامة ، الذين لم يقتصر جهدهم على بلاد الأندلس وإنما كانوا الوقود الذي أضاء نور العلم في كثير من بقاع العالم الاسلامي من المغرب إلى مصر إلى الشام والحجاز .

ويمكن أن نشير كذلك الى تميز التعليم في بلاد الأندلس بوجود آراء تربوية ناقدة ، ووجهة نظر واضحة في تربية أطفالهم ، كما أن نظامهم التعليمي قد شهد قواعد أخلاقية وتربوية واضحة تحكم العلاقة بين العالم والمتعلم ، ففي الوقت الذي تميز الطلاب بالنباهة وحسن المعرفة والسعي والاجتهاد كان العلماء والمعلمون في الأندلس من أصحاب المكانة الخاصة علما وخلقا وتربية .

ومن ناحية أخرى كان حكام الأندلس قدوة دائما في علمهم وأدبهم ، وظهر منهم العلماء والشعراء والأدباء من أمثال المعتمد بن عباد وبني الأفطس ، بالإضافة الى خلفاء الموحدين وسلاطين غرناطة .

ولم تحرم النساء من التعليم أو من العمل في التعليم ، فوجد منهن المعلمات الشهيرات والأديبات المتربعات على عرش الأدب ، والطبيبات المعترف بهن .

ولقد كان لهذه البلاد ونهضتها العلمية الأثر الخالد في نقل المعارف الاسلامية إلى الجانب النصراني من بلاد الأندلس ، ومن هذه إلى باقي أنحاء أوروبا مما لا ينكره منصف ويزداد وضوحاً مع الأيام .

ثبت المصادر والمراجع

- ١ - ابن الأبار، (أبو عبد الله القضاعي المتوفى ٦٥٨ هـ / ١٢٤٩ م)
- الحلة السيرة، تحقيق الدكتور حسين مؤنس، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٦٣ م.
- المعجم في أصحاب القاضي أبي علي الصدي، تحقيق فرانسيسكو كوديرا، مدريد ١٨٨٥ م.
- ٢ - الدكتور احسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة، دار الثقافة بيروت، الطبعة الأولى، السادسة ١٩٨١ م.
- ٣ - الدكتور أحمد سليم الحمصي، ابن زمرك الغرناطي، سيرته وأدبه، مؤسسة الرسالة (١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م).
- ٤ - الدكتور أحمد فكري، قرطبة في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، ١٩٨٣ م.
- ٥ - الدكتور أحمد فؤاد الأهواني، التربية الإسلامية، دار المعارف بالقاهرة، ١٩٥٥ م.
- ٦ - الدكتور أحمد هيكل، الأدب الأندلسي، دار المعارف بالقاهرة، الطبعة الثامنة، ١٩٨٢ م.
- ٧ - ابن الأزرقي، (أبو عبد الله بن الأزرقي المتوفى ٨٩٦ هـ / ١٤٩٠ م)
بدائع السلك في طباع الملك، تحقيق الدكتور علي سامي النشار، منشورات وزارة الاعلام بالعراق، بغداد ١٩٧٧ م.
- ٨ - ابن أبي أصيبعة (أحمد بن القاسم بن خليفة)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق الدكتور نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة ببيروت ١٩٦٥ م.
- ٩ - ابن بسام (أبو الحسن علي بن بسام الشنتري المتوفى ٥٤٢ هـ / ١١٤٧ م)
الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق الدكتور احسان عباس، دار الثقافة ببيروت ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٨ م.
- ١٠ - ابن بشكوال، (خلف بن عبد الملك المتوفى ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م)، الصلة، مطبوعات الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٦٦ م.
- ١١ - ابن بلقين، (الأمير عبد الله آخر ملوك بني زيري بغرناطة توفي بعد ٤٨٣ هـ)

- مذكرات الأمير عبد الله : أو البيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة ، تحقيق ليفي بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٥٥ م .
- ١٢- ابن حزم ، (أبو محمد علي بن أحمد بن حزم المتوفى ٤٥٦ هـ / ١٠٦٣ م) طوق الحمامة في الألفة والألاف ، تحقيق حسن كامل الصيرفي ، المكتبة التجارية بالقاهرة ، ١٩٥٩ م .
- ١٣- الدكتور حسن علي حسن الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس ، عصر المرابطين والموحدين ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٨٠ م .
- ١٤- الحميدي ، (أبو عبد الله محمد بن فتوح المتوفى ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م) جذوة المقتبس ، تحقيق محمد بن تاويت ، طبعة الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٦ م .
- ١٥- ابن الخطيب ، (ذو الوزارتين لسان الدين المتوفى ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م) - الاحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٧٤ م .
- الكتيبة الكامنة ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، دار الثقافة ببيروت ، ١٩٨٣ م .
- ١٦- ابن خلدون ، (عبد الرحمن المتوفى ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م) المقدمة ، طبعة دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، د.ت .
- ١٧- ابن خلكان ، (أبو العباس أحمد بن محمد المتوفى ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م) ، وفيات الأعيان ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، القاهرة ، ١٩٤٨ م .
- ١٨- الدكتور رضا عبد الجليل الطيار ، الدراسات اللغوية في الأندلس ، منشورات وزارة الاعلام بالعراق ، سلسلة دراسات رقم ٢٧ ، بغداد ، ١٩٨٠ م .
- ١٩- ريبيراخوليان التربية الإسلامية في الأندلس ، ترجمة الدكتور الطاهر أحمد مكي ، دار المعارف بالقاهرة ، ١٩٨١ م .
- ٢٠- الزبيدي ، (أبو بكر محمد بن حسن المتوفى ٣٧٩ هـ / ٩٨٩ م) طبقات النحويين واللغويين ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ، ١٩٥٤ م .
- ٢١- ابن أبي زرع ، (أبو الحسن علي بن عبد الله المتوفى ٧٢٦ هـ / ١٣٢٥ م) الأنيس المطرب في روض القرطاس ، تحقيق محمد الهاشمي الفلاي ، الرباط ، (١٣٥٥ هـ / ١٩٣٦ م) .

- ٢٢- الدكتور سعيد اسماعيل علي
معاهد التربية الاسلامية، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٦ م.
- ٢٣- ابن سعيد المغربي، (نور الدين أبو الحسن علي بن موسى المتوفى ٨٦٥ هـ)
المغرب في حلى المغرب، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، ١٩٦٤ م.
(ط٢).
- ٢٤- السقطي
آداب الحسبة، تحقيق كولان وليفي بروفينسال، باريس، ١٩٣١ م.
- ٢٥- الدكتور السيد عبدالعزيز سالم،
- في تاريخ وحضارة الاسلام في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة بالاسكندرية،
١٩٨٥ م.
- قرطبة حاضرة الخلافة الاسلامية، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧١ م.
- ٢٦- الدكتور السيد محمد أبو العزم
الأثر السياسي والحضاري للمالكية في شمال افريقية حتى قيام دولة المرابطين،
المكتبة الفيصلية، مكة المكرمة (١٤٠٥ هـ / ١٩٨٠ م).
- ٢٧- السيوطي، (جلال الدين عبد الرحمن المتوفى ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م)
بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، مطبعة
عيسى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٦٤ م.
- ٢٨- شاك، فون
الفن العربي في اسبانيا وصقلية، ترجمة الدكتور الطاهر أحمد مكي، دار المعارف
بالقاهرة ١٩٨٠ م.
- ٢٩- الأمير شكيب أرسلان
الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، منشورات دار مكتبة الحياة ببيروت،
د. ت.
- ٣٠- الضبي، (أحمد بن يحيى بن عميرة المتوفى ٥٩٩ هـ / ١٢٠٢ م)
بغية الملتبس، نشر دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٧ م.
- ٣١- الدكتور الطاهر أحمد مكي، حضارة الاسلام في الأندلس، عدد خاص من مجلة
الهلal، القاهرة، يونية ١٩٧٦ م.
- ٣٢- الدكتور عبد الحليم عويس
ابن حزم الأندلسي وجهوده في البحث التاريخي والحضاري، دار الاعتصام،
القاهرة، ١٩٧٩ م.

- ٣٣- الدكتور عبد الرحمن علي الحجي
التاريخ الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة، دار القلم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٦ م.
- ٣٤- الدكتور عبد الهادي التازي،
- جامع القرويين، بيروت، ١٩٧٤ م.
- مقدمة تحقيقه لكتاب ابن صاحب الصلاة: «المن بالامامة»، بيروت، ١٩٦٤ م.
- ٣٥- ابن عبدون
رسالة في الحسبة، تحقيق ليفي بروفينسال، نشر المجلة الآسيوية، عام ١٩٣٤ م.
- ٣٦- ابن عذارى، (أبو عبد الله المراكشي المتوفى ٦٩٥ هـ / ١٢٩٥ م)
البيان المغرب، تحقيق كولان وليفي بروفينسال، طبعة دار الثقافة ببيروت، د. ت.
- ٣٧- الدكتور عمار الطالبي
آراء أبي بكر بن العربي الكلامية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر، د. ت.
المقدمة، بتاريخ ١٩٧٤ م.
- ٣٨- القاضي عياض، (أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي المتوفى ٥٤٤ هـ / ١١٤٩ م)
الغنية في فهرست شيوخ القاضي عياض، تحقيق الدكتور محمد بن عبد الكريم،
الدار العربية للكتاب، تونس، (١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م).
- ٣٩- ابن فرحون، (ابراهيم بن علي المتوفى ٧٩٩ هـ / ١٣٩٦ م)
الديباج المذهب في معرفة علماء المذهب، طبعة دار الكتب العلمية ببيروت، د. ت.
- ٤٠- ابن الفرضي، (أبو الوليد عبد الله بن محمد المتوفى ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م)
تاريخ علماء الأندلس، طبعة الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٦ م.
- ٤١- كريم عجيل حسن
الحياة العلمية في مدينة بلنسية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٣٩٦ هـ.
- ٤٢- الدكتور محمد عبد الحميد عيسى، تاريخ التعليم في الأندلس، دار الفكر العربي،
القاهرة، ١٩٨٢ م.
- ٤٣- الدكتور محمد كمال شبانة
يوسف الأول سلطان غرناطة، لجنة البيان العربي، القاهرة، ١٩٦٩ م.
- ٤٤- محمد المنتصر الريسوني
الشعر النسوي بالأندلس، منشورات دار الحياة، بيروت، ١٩٧٨ م.

- ٤٥- محمد المنوني
العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين، دار الغرب للتأليف والترجمة والنشر،
الرباط، (١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م).
- ٤٦- المراكشي، (عبد الواحد المتوفى ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م)
المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، دار الكتاب، الدار
البيضاء، الطبعة السابعة، ١٩٧٨م.
- ٤٧- الدكتور مصطفى أحمد علي السيوفي
ملامح التجديد في النشر الأندلسي خلال القرن الخامس الهجري، عالم الكتب،
بيروت، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.
- ٤٨- الدكتور مصطفى عليان عبد الرحيم
تيارات النقد الأدبي في الأندلس في القرن الخامس الهجري، مؤسسة الرسالة، بيروت،
(١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م).
- ٤٩- المقرئ، (شهاب الدين أحمد بن محمد المقرئ المتوفى ١٠٤١هـ / ١٦٣١م)
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار صادر
بيروت، ١٩٦٨م.